

الجزء الثامن و العشرون

سورة المجادلة

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَجَاوُزَ كُلِّ شَيْءٍ
اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن تَسَاءَلُونَ مَا مَثَلُكُمْ إِنْ أَمَّاهُمْ إِلَّا
اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفِيفٌ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ
تَوْعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3)

سورة المجادلة

مقدمة لسورة المجادلة

نحن في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله تقريبا - مع أحداث السيرة في المجتمع المدني . مع الجماعة المسلمة الناشئة ; حيث تربي وتقوم , وتعد للنهوض بدورها العالمي , بل بدورها الكوني , الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة , في نفوس هذه الجماعة , وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور , ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . . وهو دور ضخم إذن يقتضي إعدادا كاملا .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم , ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم , واكمل تصورهم للعقيدة الجديدة , وخلصت نفوسهم لها , ووصلوا . . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ; واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود , فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله في الكون ; لا يجدون في أنفسهم عوجا عنه , ولا يجدون في خطاهم تخلفا عن خطاه , ولا يجدون في قلوبهم شيئا إلا الله . . كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله , ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان , وأيدهم بروح منه , ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد - وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب - حتى قبل الفتح - ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي , ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من أثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب , وترى بالفرض , وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود ! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهودا ضخمة , وصبرا طويلا , وعلاجا بطيئا , في صغار الأمور وفي كبارها . . كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام , وقام بها رسول الإسلام [ص] بناء النفوس التي تنهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة

الإسلامية , وتقوم على منهج الله , تفهمه وتحققه , وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة , لا في صحائف وكلمات .

ونحن نشهد في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله - طرفا من تلك الجهود الضخمة , وطرفا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس , وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات ; كما نشهد جانبا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافيين .

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ; وهو يصنعها على عينه , ويربها بمنهجه , ويشعرها برعايته , ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده - سبحانه - معها في أخص خصائصها , وأصغر شؤونها , وأخفى طواياها ; وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ; وأخذها في حماه وكنفه , وضمها إلى لوائه وظله ; وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله , وتتسبب إليه , وتؤلف حزبه في الأرض , وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعا .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسوسة , ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله , والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير). . فنشهد السماء تتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة , لتقرر حكم الله في قضيتها , وقد سمع - سبحانه - للمرأة وهي تحاور رسول الله فيها , ولم تكذ تسمعها عائشة وهي قريبة منها ! وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يلها في سياق السورة تأكيد أن الذين يحادون الله ورسوله - وهم أعداء الجماعة المسلمة التي تعيش في كنف الله - مكتوب عليهم الكبت والقهر في الأرض , والعذاب المهين في الآخرة , مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم , ونسوه هم وهم فاعلوه ! (والله على كل شيء شهيد). .

ثم تأكيد وتذكير بحضور الله - سبحانه - وشهوده لكل نجوى في خلوة , يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا: (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة , إن الله بكل شيء عليم). . وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره , كما تملؤه برقايته وإطلاعه .

وهذا التوكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكائد للمسلمين , وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف , وأن عين الله مطلعة عليهم , ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة , وأن الله أخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى , وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة ; فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله [ص] ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول [ص] والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ; ويتآمرون معهم , ويدارون تأمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم في

الآخرة كذلك حلافين كذابين ; يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله , كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع تأكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسوله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم , الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام - وبعض المسلمين - يستعظمه , فيحافظ على مودته معهم , ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها , والاعتزاز برعاية الله وحده , والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه , وبهيتها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تجيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعد في الطريق !

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . الخ الآية . . . كما وردت في أول هذا التقديم .

الدرس الأول: 1 - 4 إبطال الظهار

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , والله يسمع تحاوركما , إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم , إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم , وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا , وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا , ذلكم توعظون به , والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا , فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا , ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله , وللكافرين عذاب أليم) .

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول: أنت علي كظهر أمي . فتحرم عليه , ولا تطلق منه . وتبقى هكذا , لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ; ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر . وكان هذا طرفا من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير إليها هذه الآيات , ولم يكن قد شرع حكم للظهار . قال الإمام أحمد: حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب , قالوا: حدثنا أبي , حدثنا محمد بن إسحاق , حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة , عن يوسف بن عبد الله بن سلام , عن خويلة بنت ثعلبة . قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت: كنت عنده , وكان شيئا كبيرا قد ساء خلقه , قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب , فقال: أنت علي كظهر أمي . قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة , ثم دخل علي , فإذا هو يريدني عن نفسي , قالت: قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده , لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت: فواتبني , فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف , فألقيته عني . قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابا , ثم خرجت حتى جئت رسول الله [ص] فجلست بين يديه , فذكرت له ما لقيت منه , وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت: فجعل رسول الله [ص] يقول: " يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه " قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ; فتغشى رسول الله [ص] ما كان يتغشاه , ثم سري عنه , فقال لي: " يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا " . ثم قرأ علي -: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , والله

يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير). . إلى قوله تعالى: (وللكافرين عذاب أليم). .
قالت: فقال لي رسول الله [ص]: " مريه فليعتق رقبة " . قالت: فقلت: يا رسول الله ما
عنده ما يعتق . قال: " فليصم شهرين متتابعين " . قالت: فقلت: والله إنه لشيخ ما له من
صيام . قال: " فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر " . قالت: فقلت: والله يا رسول الله
ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله [ص]: " فإنا سنعيه بعرق من تمر " .
قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعيه بعرق آخر . قال: " قد أصبت وأحسن فذهبي
فتصدقي به عنه , ثم استوصي بآبن عمك خيرا " . قالت: ففعلت .

فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله [ص] والمرأة التي
جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ,
ليعطي هذه المرأة حقا , ويريح بالها وبال زوجها , ويرسم للمسلمين الطريق في مثل
هذه المشكلة العائلية اليومية !

وهذا هو الشأن الذي تفتتح به سورة من سور القرآن: كتاب الله الخالد , الذي تتجارب
جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته , وهي تنزل من الملاء الأعلى . . تفتتح بمثل هذا
الإعلان: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . .) فإذا الله حاضر هذا الشأن
الفردى لامرأة من عامة المسلمين , لا يشغله عن سماعه تديره لملكوت السماوات
والأرض ; ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض !

وإنه لأمر . . إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ; وأن تشعر جماعة من الناس أن
الله هكذا معها , حاضر شؤونها , جليلها وصغيرها , معني بمشكلاتها اليومية , مستجيب
لأزماتها العادية . . وهو الله . . الكبير المتعال , العظيم الجليل , القهار المتكبر , الذي له
ملك السماوات والأرض وهو الغني الحميد .

تقول عائشة - رضي الله عنها - : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت
المجادلة خولة إلى رسول الله [ص] في جانب البيت , ما أسمع ما تقول . فأنزل الله
عز وجل: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . . الآية .

وفي رواية خولة - أو خولة للتصغير والتدليل - للحادث , وتصرفها هي فيه , وذهابها إلى
رسول الله [ص] ومجادلتها له , ونزول القرآن بالحكم . . في هذا كله صورة من حياة
تلك الجماعة الفريدة في تلك الفترة العجيبة . وشعورها بتلك الصلة المباشرة ,
وانتظارها التوجيه من السماء في كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار ,
الذي يجعل الجماعة كلها - عيال الله - هو يرعاها وهي تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير
لأبيه وراعاه !

وننظر في رواية الحادث في النص القرآني , فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية
والتوجيه تسيير جنباً إلى جنب مع الحكم وتخلله وتعقب عليه , كما هو أسلوب القرآن
الفريد:

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله , والله يسمع تحاوركما ,
إن الله سميع بصير). . وهو مطلع ذو إيقاع عجيب . . إنكما لم تكونا وحدكما . . لقد كان
الله معكما . وكان يسمع لكما . لقد سمع قول المرأة . سمعها تجادلك في زوجها
وتشتكي إلى الله . وعلم القصة كلها . وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه . . إن الله سميع
بصير . يسمع ويرى . هذا شأنه وهذه صورة منه في الحادث الذي كان الله ثالثكما فيه

وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب . .

ثم يقرر أصل القضية , وحقيقة الوضع فيها:

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا , وإن الله لعفو غفور) . .

فهو علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هي التي ولدت . ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور في الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع , في وضوح وتحديد , فلا تختلط ذلك الاختلاط , ولا تضطرب هذا الاضطراب . . (وإن الله لعفو غفور) فيما سلف من هذه الأمور .

وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجيء الحكم القضائي في الموضوع . (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به , والله بما تعملون خبير) . .

وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة , وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب في الرق إلى أجل , ينتهي بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة في معنى: (ثم يعودون لما قالوا) . . نختار منها أنهم يعودون إلى الوطاء الذي حرموه على أنفسهم بالظهار . فهذا أقرب ما يناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله . . ثم التعقيب: (لكم توعظون به) . . فالكفارة مذكور وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف (والله بما تعملون خبير) . . خبير بحقيقته , وخبير بوقوعه , وخبير بنيتكم فيه .

فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَایَا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّینَ مَسْکِینَا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5)

وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب , وتربية النفوس , وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه:

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) . . .

ثم التعقيب للبيان والتوجيه:

(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) . . . وهم مؤمنون . . ولكن هذا البيان , وهذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه . . ذلك مما يحقق الإيمان , ويربط به الحياة ; ويجعل له سلطانا بارزا في واقع الحياة . (وتلك حدود الله) . . أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاه ولا يتحرج دونها: (وللكافرين عذاب أليم) . . بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين . .

الدرس الثاني: 5 - 6 هلاك وكبت وخسارة الذين يحادون الله ورسوله

وتلك العبارة الأخيرة: (وللكافرين عذاب أليم). . تناسب ختام الآية السابقة , وهي في الوقت ذاته قنطرة تربط بينها وبين الآية اللاحقة التي تتحدث عنم يحادون الله ورسوله . على طريقة القرآن في الانتقال من حديث لحديث في تسلسل عجيب:

(إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم , وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا , فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه , والله على كل شيء شهيد). .

إن المقطع الأول في السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثاني صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر . فريق الذين يحادون الله ورسوله , أي الذين يأخذون لهم موقفا عند الحد الآخر في مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لا يقفون عند حد الله ورسوله , بل عند الحد الآخر المواجه ! وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين , لتفطيع عملهم وتقبیح موقفهم . وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه , ويقف في تبجح عند الحد المواجه لحدّه !

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون: (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم). . والأرجح أن هذا دعاء عليهم . والدعاء من الله - سبحانه - حكم . فهو المرید وهو الفعال لما يريد . والكبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقسام الذين أخذهم الله بنكاله وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون في بعض المواقع التي تقدمت نزول هذه الآية , كما حدث في غزوة بدر مثلا .

(وقد أنزلنا آيات بينات). .

تفصل هذه العبارة بين مصير الذين يحادون الله ورسوله في الدنيا ومصيرهم في الآخرة . . لتقرير أن هذا المصير وذاك تكفلت ببيانه هذه الآيات . وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض في الحقيقة , فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات .

ثم يعرض مصيرهم في الآخرة مع التعقيب الموحى الموقظ المربي للنفوس:

(وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا , فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه . والله على كل شيء شهيد). .

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

والمهانة جزاء التبجح . وهي مهانة يوم يبعثهم الله جميعا . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذي لا يند عنه شيء , ولا يغيب عنه خاف: (والله على كل شيء شهيد). .

وتلقي صورة الرعاية والعناية , بصورة الحرب والنكابة , في علم الله واطلاعه , وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ; وهو شاهد حاضر للحرب والنكابة . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون !

الدرس الثالث: 7 علم الله الشامل لكل ما يحدث في الكون

وبستطرد السياق من تقرير حقيقة: (والله على كل شيء شهيد). . إلى رسم صورة حية من هذا الشهود , تمس أوتار القلوب:

ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض , ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم , ولا خمسة إلا هو سادسهم , ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم , أينما كانوا , ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة , إن الله بكل شيء عليم . .

تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما في السماوات وما في الأرض على إطلاقه , فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شيء في هذا المدى الواسع المتطاوّل . من صغير وكبير , وخاف وظاهر , ومعلوم ومجهول . .

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء , وتزحف وتقرّب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهي تهز القلوب:

ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم , ولا خمسة إلا هو سادسهم , ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . .

وهي حقيقة في ذاتها , ولكنها تخرج في صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة , وتأنس مرة , وهي مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك !

إنها حالة لا يثبت لها قلب ; ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز . . وهو محضر مأنوس نعم . . ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله: هو معهم أينما كانوا . .

(ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة). .

وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل . . إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل . فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع ما بعده من حساب وعقاب ? وكيف إذا كان ما يسره المتناجون وينعزلون به ليخفوه , سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملاء الأعلى في ذلك اليوم المشهود !

وتنتهي الآية بصورة عامة كما بدأت:

إن الله بكل شيء عليم .

وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهي في القلوب , بهذه الأساليب المنوعة في عرضها في الآية الواحدة . الأساليب التي تعمق هذه الحقيقة في القلب البشري , وهي تدخل بها عليه من شتى المسالك والدروب !

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا
يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَوْنَ الْمَصِيرَ (8)

الدرس الرابع: 8 ذم المنافقين لتناجيهم بالباطل ذلك التقرير العميق لحقيقة حضور الله وشهوده في تلك الصورة المؤثرة المرهوبة تمهد لتهديد المنافقين , الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول [ص] وضد الجماعة المسلمة بالمدينة . مع التعجب من موقفهم المريب:

ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه , ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول , وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله , ويقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير .

والآية توحى بأن خطة رسول الله [ص] مع المنافقين في أول الأمر كانت هي النصح لهم بالاستقامة والإخلاص , ونهيبهم عن الدسائس والمؤامرات التي يدبرونها بالاتفاق مع اليهود في المدينة وبوحيتهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون في خطتهم اللئيمة , وفي دسائسهم الخفية , وفي التدبير السيء للجماعة المسلمة , وفي اختيار الطرق والوسائل التي يعصون بها أوامر الرسول [ص] ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحى بأن بعضهم كان يلتوي في صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيء خفي: وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله . كأن يقولوا - كما كان اليهود يقولون - السام عليكم . وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليكم . بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون في دينكم ! أو أية صيغة أخرى ظاهرها بريء وباطنها لئيم ! وهم يقولون في أنفسهم: لو كان نبيا حقا لعاقبنا الله على قولنا هذا . أي في تحيتهم , أو في مجالسهم التي يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات .

وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول [ص] بما كانوا يقولونه في أنفسهم , وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق في السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة ; وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . الخ . مما يوحي بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك في أنفسهم .

ثم رد عليهم بقوله تعالى:

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير).

وكشف هذه المؤامرات الخفية , وإفشاء نجواهم التي عادوا إليها بعدما نهوا عنها , وكذلك فضح ما كانوا يقولونه في أنفسهم: (لولا يعذبنا الله بما نقول). . هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما في السماوات وما في الأرض , وحضوره لكل نجوى , وشهوده لكل اجتماع . وهو يوقع في نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح , كما يوحي للمؤمنين بالاطمئنان والثوق .

الدرس الخامس 9 - 10 النهي عن النجوى المحرمة وإباحة النجوى الطيبة وتحصين من وساوس الشيطان

وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا , يخاطبهم بهذا النداء: يا أيها الذين آمنوا لينهاهم عن التناجي بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول , ويذكرهم تقوى الله , ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هي من إحياء الشيطان ليحزن الذين آمنوا , فليست تليق بالمؤمنين:

(يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول , وتناجوا بالبر والتقوى , واتقوا الله الذي إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بأذن الله , وعلى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)
الله فليتوكل المؤمنون).

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي , كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور , ليتناجوا فيما بينهم وبتشاوروا بعيدا عن قيادتهم . الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية , وروح التنظيم الإسلامي , التي تقتضي عرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء , وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة . كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة , وما يؤدي الجماعة المسلمة - ولو لم يكن قصد الإيذاء قائما في نفوس المتناجين - ولكن مجرد إثارتهن للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم , قد يؤدي إلى الإيذاء , وإلى عدم الطاعة .

وهنا يناديهم الله بصفتهم التي تربطهم به , وتجعل للنداء وقع وتأثيره: يا أيها الذين آمنوا . لينهاهم عن التناجي - إذا تناجوا - بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون: (وتناجوا بالبر والتقوى). . . لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر: الخير عامة . والتقوى: اليقظة والرقابة لله سبحانه , وهي لا توحى إلا بالخير . ويذكرهم بمخافة الله الذي يحشرون إليه , فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستروه وأخفوه .

قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان , قال: أخبرنا همام , عن قتادة , عن صفوان بن محرز , قال: كنت أخذا بيد ابن عمر , إذ عرض له رجل , فقال: كيف سمعت رسول الله [ص] يقول في النجوى يوم القيامة ? قال: سمعت رسول الله [ص] يقول: " إن الله يذني المؤمن , فيضع عليه كنفه , ويستتره من الناس , ويقرره بذنوبه , ويقول له: أتعرف ذنب كذا ? أتعرف ذنب كذا ? أتعرف ذنب كذا ? حتى إذا قرره بذنوبه , ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم , ألا لعنة الله على الظالمين " .

ثم ينفرهم من التناجي والمسارة والتدسس بالقول في خفية عن الجماعة المسلمة , التي هم منها , ومصلتهم مصلتها , وينبغي ألا يشعروا بالانفصال عنها في شأن من الشؤون . فيقول لهم: إن رؤية المسلمين للوسوسة والهوس والانعزال بالحديث تبت في قلوبهم الحزن والتوجس , وتخلق جوا من عدم الثقة ; وأن الشيطان يغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوسواس والهموم . ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد:

(إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا , وليس بضارهم شيئا - إلا بإذن الله - وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل , وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون !

وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة وترزع الثقة وتبعث التوجس:

جاء في الصحيحين من حديث الأعمش - بإسناده - عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص]: " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه " .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَاسَّوْا لِلرَّسُولِ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَسْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)

وهو أدب رفيع , كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر , أو ستر عورة , في شأن عام أو خاص , فلا مانع من التشاور في سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسؤولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة . فهذا هو الذي نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول . وهذا هو الذي يفتت الجماعة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة . وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة , لأن الله حارسها وكالتها ; وهو شاهد حاضر في كل مناجاة , وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتامر . ولن يضر الشيطان المؤمنين . . (إلا بإذن الله) . وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم , لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم . .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . . فهو الحارس الحامي , وهو القوي العزيز , وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب . ولا يكون في الكون إلا ما يريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأى طمأنينة بعد هذا وأي يقين ?

الدرس السادس: 11 توجيه المسلمين إلى آداب المجالس

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم: تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل: انشزوا فانشزوا , يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير) . .

وبظهر من بعض الروايات التي حكى سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين , مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد في السياق .

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر , وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله [ص] فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله [ص] يومئذ في الصفة , وفي المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله [ص] فقالوا: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته , فرد النبي [ص] عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فعرف النبي [ص] ما يحملهم على القيام , فلم يفسح لهم . فشق ذلك على النبي [ص] فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان . وأنت يا فلان . فلم يزل يقيمهم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه , وعرف النبي [ص] الكراهة في وجوههم . فقال المنافقون: أستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ? والله ما رأيناه قد عدل علي هؤلاء ! إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم , فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . . فبلغنا أن رسول الله [ص] قال: " رحم الله رجلا يفسح لأخيه " . . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا , فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة .

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء في الصحيحين: " لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه , ولكن تفسحوا وتوسعوا " . . وما ورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا في الصدر !

فالآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس , كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لا من القادم .

والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح , واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة , فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح . فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضي خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك , من عدم تخطي الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هي السماحة والنظام يقررهما الإسلام . والآداب الواجب في كل حال .

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف , فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة: (فافسحوا يفسح الله لكم). . وبعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام: (وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). . وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام .

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول [ص] لتلقي العلم في مجلسه . فالآية تعلمهم: أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر , والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع ; يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول [ص] (والله بما تعملون خبير). . فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون , وبما وراءه من شعور مكنون .

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها , وتعليمها الفسحة والسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة . فالدين ليس بالتكاليف الحرفية , ولكنه تحول في الشعور , وحساسية في الضمير . .

الدرس السابع: 12 - 13 دفع الصدقة عند مناجاة الرسول ثم نسخ ذلك

كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر في علاقتهم برسول الله [ص] فيبدو أنه كان هناك تراحم على الخلوة برسول الله [ص] ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ; ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ; أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله [ص] الجماعية ; وعدم الشعور بقيمة وقته , وبجدية الخلوة به , وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله [ص] ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة . في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم). .

وقد عمل بهذه الآية الإمام علي - كرم الله وجهه - فكان معه - كما روي عنه - دينار فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله [ص] لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم . وكان الأمر قد أدى غايته , وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ; وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

(أأشفقتهم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خير بما تعملون) . .

وفي هاتين الآيتين والروايات التي ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة في الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك .

الدرس الثامن: 14 - 19 ذم المنافقين لمولاتهم اليهود ومتابعتهم الشيطان

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم ، ويتوعدهم بافتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم:

ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ؟ ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء . ألا إنهم هم الكاذبون . إستحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . .

وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم - وهم اليهود - تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت ، بحيث يخافها المنافقون ، فيضطرون - عندما يواجههم رسول الله [ص] والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم - إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون في هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: اتخذوا أيمانهم جنة أي وقاية . وبذلك يستمرون في دسائسهم للصد عن سبيل الله !

والله يتوعدهم مرات في خلال هذه الآيات: (أعد الله لهم عذابا شديدا . إنهم ساء ما كانوا يعملون) . (فلهم عذاب مهين) . (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

ويصور مشهدهم يوم القيامة في وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس: (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) . مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل في كياناتهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفي حضرة الله ذي الجلال . الذي يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ! (ويحسبون أنهم على شيء) . وهم على هواء لا يستندون إلى شيء . أي شيء !

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت: (ألا إنهم هم الكاذبون) . .

ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية (فأنسأهم ذكر الله) . . والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر: (أولئك حزب الشيطان) . . الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص: (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) . .

وهي حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التي يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله - سبحانه وتعالى - يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين !

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَى (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

الدرس التاسع: 20 - 21 الله الغالب وأعداؤه أذلون ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى اليهود شعورا منهم بأنهم قوة تخشى وترجى . ويطلبون عندهم العون والمشورة . فإن الله يبيئهم منهم , ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة , وكتب لنفسه ولسوله الغلبة والتمكين:

(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسولي . إن الله قوي عزيز). . وهذا وعد الله الصادق الذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ; ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية , وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد , لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة , فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة , من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة , بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين , يحميهم من الانهيار , ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها , ومن خضوعها للطغيان العاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه . . حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول الله تعالى .
يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل !!

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود , وأن الذين يحادون الله ورسوله هم الأذلون , وأن الله ورسوله هم الغالبون . وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون . ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون !

الدرس العاشر: 22 الثناء على حزب الله في ولائهم لله وبراءتهم من أعدائه

وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون ، أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون) . .

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد .

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . .

فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين: ودا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان .

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

(ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) . .

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللواتين: لواء الله ولواء الشيطان . والصحة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى أصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) . .

فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن . فلا زوال له ولا اندثار ، ولا انطماس فيه ولا غموض !

(وأيدهم بروح منه) . .

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

(ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) . .

جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وأصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه).. .

وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة , ترسم حالة المؤمنين هؤلاء , في مقام عال رفيع . وفي جوراض وديع . . ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به ; فتقبلهم في كنفه , وأفسح لهم في جنبه , وأشعرهم برضاه . فرضوا . رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه . .

(أولئك حزب الله).. .

فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه . فهي قدر من قدر الله .

(ألا إن حزب الله هم المفلحون).

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ?

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان . وإلى راييتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق , وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان !!

لا نسب ولا صهر , ولا أهل ولا قرابة , ولا وطن ولا جنس , ولا عصبية ولا قومية . . إنما هي العقيدة , والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم , وتختلف عشائرتهم وتختلف أسرهم , ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله , فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل , فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض , ولا من جنس , ولا من وطن ولا من لون , ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر . . لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فأنبتت هذه الوشائج جميعا . .

ومع إichاء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرابة وجواذب المصلحة والصدقة , مما تعالجه هذه الآية في النفوس , وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم , والمفاضلة القاطعة . . إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة , ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .

وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة في واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسوله [ص] في شأنها وشأن زوجها !

فالانقطاع لله الذي يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية . والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هي الأمر الذي لا ينبغي غيره للأمة التي اختارها الله للدور الكوني الذي كلفها إياه .

سورة الحشر

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

سورة الحشر

مقدمة لسورة الحشر نزلت هذه السورة في حادث بني النضير - حي من أحياء اليهود - في السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ؟ ولماذا وقع ؟ وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية . . تروها بطريقة القرآن الخاصة ، وتعقب علي الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات .

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية في السورة ، نعرض شيئاً مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذي نزلت السورة بشأنه ؛ لنرى ميزة العرض القرآني ، وبعد أماده وراء الأحداث التي تنتزل بشأنها النصوص ، فتفي بمقتضيات الأحداث ، وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة بالزمان والمكان .

كانت وقعة بني النضير في أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله [ص] ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم - إلى محلة بني النضير ، يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمراً لاغتيال رسول الله [ص] ومن معه . وكان [ص] جالساً إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فقال: أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال . فألهم رسول الله [ص] ما يبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضي أمراً . فلما غاب استبطاه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله [ص] بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف - من بني النضير - في هجاء رسول الله [ص] وتأليب الأعداء عليه . وما قيل من أن كعباً ورهطاً من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي [ص] مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله [ص] يأذن لمحمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف . فقتله .

فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) . فتجهز رسول الله [ص] وحاصر محلة بني النضير ، وأمهلم ثلاثة أيام - وقيل عشرة - ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين في المدينة - وعلى رأسهم عبدالله بن أبي بن سلول رأس النفاق - أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم: أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم . وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفي هذا يقول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . . .).

فتحصن اليهود في الحصون ؛ فأمر رسول الله [ص] بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه: فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وفي الرد عليهم نزل قوله تعالى: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) . .

ولما بلغ الحصار ستاً وعشرين ليلة ، يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله [ص] أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، كما سبق جلاء بني قينقاع - وقد ذكرنا سببه وظروفه في تفسير سورة الأحزاب في الجزء الحادي والعشرين - على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (2)
وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)
إلا السلاح . فأجابهم رسول الله [ص] فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل .
فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهره بغيره ؛ أو يخربه حتى لا
يقع في أيدي المسلمين ؛ وكان المسلمون قد هدموا وخرّبوا بعض الجدران التي اتخذت
حصونا في أيام الحصار .

وفي هذا يقول الله في هذه السورة: (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ووطنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . .

وكان منهم من سار إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرفهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحي بن أخطب ، ممن ورد ذكرهم بعد ذلك في تأليب المشركين على المسلمين في غزوة الأحزاب ووقعة بني قريظة " في سورة الأحزاب " وكان لبعضهم كذلك ذكر في فتح خيبر " في سورة الفتح " .

وكانت أموال بني النضير فيئا خالصا لله وللرسول ؛ لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله [ص] على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف ، وأبو دجانة سماك بن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذي تركوه في مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد

أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم في أريحية عالية , وأخوة صادقة , وإيثار عجيب . فلما وابت هذه الفرصة سارع رسول الله [ص] لإقامة الأوضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي , كي يكون للفقراء مال خاص , وكي لا يكون المال متداولاً في الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين الذين يستحقان لفقركهما . .

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم - والراجح أنهم من المنافقين - فقال تعالى: (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب , ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير). .

وقال رسول الله [ص] للأنصار: " إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم , ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة " فقالت الأنصار: بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

وفي هذا نزل قوله تعالى: للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

فهذا هو الحادث الذي نزلت فيه هذه السورة , وتعلقت به نصوصها , بما في ذلك خاتمة السورة التي يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن في تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها , وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير في السورة بذكر صفات الله الذي يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون ; وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذي له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام مع موضوع السورة , ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكير في تدبير الله الحكيم .

والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث , وكيف تربى النفوس بهذه الأحداث . .

الدرس الأول: 1 تسبيح ما في الوجود لله

(سبح لله ما في السماوات وما في الأرض , وهو العزيز الحكيم). .

بهذه الحقيقة التي وقعت وكانت في الوجود . حقيقة تسبيح كل شيء في السماوات وكل شيء في الأرض لله , واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد . . تفتتح السورة التي تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم , وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده الممجدين لأسمائه الحسنى . . (وهو العزيز الحكيم). . القوي القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه . . الحكيم في تدبيره وتقديره .

الدرس الثاني: 2 - 4 الدعوة للإعتبار مما حدث لبني النضير

ثم يقص نبأ الحادث الذي نزلت فيه السورة:

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا , وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ; فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا , وقذف في قلوبهم الرعب , يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين , فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا , ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله , ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شيء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة , توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التي منها يحشرون , فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر في إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية في الآية:

(ما ظننتم أن يخرجوا , وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) . .

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون في تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردّها الحصون !

(فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب).

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب , ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم , ولا يحكمون قلوبهم , ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنائهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كياناتهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمرا . يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر , وهو يعلم كل شيء , وهو على كل شيء قدير . فلا حاجة إذن إلي سبب ولا إلى وسيلة , مما يعرفه الناس ويقدرونه . فالسبب حاضر دائما والوسيلة مهياة . والسبب والنتيجة من صنعه , والوسيلة والغاية من خلقه ; ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة , ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية . . . وهو العزيز الحكيم . .

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم , ويمكنون المؤمنين من إخراجها:

(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) . .

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب , في تلك الصورة الموحية , وهذه الحركة المصورة . . والله - سبحانه - يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ; ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين .

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة , وعلى إيقاع هذه الحركة:

(فاعتبروا يا أولي الأبصار). .

وهو هتاف يجيء في مكانه وفي أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار .

والآية التالية تقرر أن إرادة الله في النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم في الدنيا غير ما ينتظرهم في الآخرة:

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا , ولهم في الآخرة عذاب النار). .

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التي وقعت أو بصورة أخرى . ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر . غير عذاب النار الذي ينتظرهم هناك . فقد استحقوا عذاب الله في صورة من صورته على كل حال !

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب). .

والمشاققة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله , وجانبا غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية . فاكتفى في عجزها بمشاققة الله وحده فهي تشمل مشاققة الرسول وتتضمنها . ثم ليقف المشاققون في ناحية أمام الله - سبحانه - وهو موقف فيه تبجح قبيح , حين يقف المخاليق في وجه الخالق يشاققونه ! وموقف كذلك رعب , وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاققين لله في كل أرض وفي كل وقت . من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب , وما استحقوا به هذا العقاب .

ولا يفوتنا أن نلاحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم (الذين كفروا من أهل الكتاب) وتكرار هذه الصفة في السورة . فهي حقيقة لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد [ص] وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها . وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم ; كما أنه يعبئ شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم , وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم . فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ !

الدرس الثالث: 5 إباحة الحرب الإقتصادية ضد العدو

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ,

مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)
أو تركه كذلك قائما , وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا:

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله , وليخزي الفاسقين). .
واللينة الجيدة من النخل , أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود , وأبقوا بعضه . فتخرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا

منهين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص , يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله . فهو الذي تولى بيده هذه الموقعة ; وأراد فيها ما أراد , وأنفذ فيها ما قدره , وكان كل ما وقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزي الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ; وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحجرة , وتشفى صدورهم مما حاك فيها , وتطمئن إلى أن الله هو الذي أراد وهو الذي فعل . والله فعال لما يريد . وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ ما يريد .

الدرس الرابع: 6 - 10 توزيع الفيء وثلاث فئات للمجتمع الإسلامي المهاجرون والأنصار والخلف

فأما المقطع الثاني في السورة فيقرر حكم الفيء الذي أفاءه الله على رسوله في هذه الواقعة وفيما يماثلها , مما لم يتكلف فيه المسلمون غزوا ولا قتالا . . أي الوقائع التي تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الواقعة:

وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء , والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله , إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم , يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم , ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم . .

وهذه الآيات التي تبين حكم الله في هذا الفيء وأمثاله , تحوي في الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة في حينها ; كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالي العصور , وخصائصها المميزة التي تترابط بها وتتماسك على مدار الزمان , لا يفصل فيها جيل عن جيل , ولا قوم عن قوم , ولا نفس عن نفس , في الزمن المتطاوّل بين أجيالها المتعاقبة في جميع بقاع الأرض . وهي حقيقة ضخمة كبيرة ينبغي الوقوف أمامها طويلا في تدبر عميق . .

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب , ولكن الله يسلط رسله على من يشاء , والله على كل شيء قدير).

والإيجاف: الركض والإسراع . والركاب: الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفيء الذي خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلا , ولم يسرعوا إليه ركبا , فحكمه ليس حكم الغنيمة التي أعطاهم الله أربعة أخماسها , واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل , كما حكم الله في غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفيء أنه كله لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل . والرسول [ص] هو الذي يتصرف فيه كله في هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)

في الآيتين هم قرابة رسول الله [ص] أن كانت الصدقات لا تحل لهم ، فليس لهم في الزكاة نصيب ، وأن كان النبي لا يورث فليس لذوي قرابته من ماله شيء . وفيهم الفقراء الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا ، كما جعل لهم من هذا الفياء وأمثاله نصيبا . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول [ص] هو المتصرف فيها .

هذا هو حكم الفياء تبينه الآيات . ولكنها لا تقتصر على الحكم وعلته القريبة . إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة: (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) . فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء . (والله على كل شيء قدير) .

بهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر ; ويتحدد مكانهم في دولا القدر الدوار . ويتبين أنهم - ولو أنهم بشر - متصلون بإرادة الله ومشيئته اتصالا خاصا ، يجعل لهم دورا معيناً في تحقيق قدر الله في الأرض ، بإذن الله وتقديره . فما يتحركون بهواهم ، وما يأخذون أو يدعون لحسابهم . وما يغزون أو يقعدون ، وما يخاصمون أو يصالحون ، إلا لتحقيق جانب من قدر الله في الأرض منوط بهم ويتصرفاتهم وتحركاتهم في هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله . وهو على كل شيء قدير . .

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب) . .

وتبين هذه الآية الحكم الذي أسلفنا تفصيلا . ثم تعلق هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإقتصادي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . . كما تضع قاعدة كبرى في التشريع الدستوري للمجتمع الإسلامي: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . . ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفياء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى أمام كثيرة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي .

والقاعدة الأولى ، قاعدة التنظيم الإقتصادي ، تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الإقتصادية في الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها في هذا النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة . قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الإغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الإقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله . وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفا في المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أو

خمسة في المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك في الأنعام . وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي . وهي نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفية كله للفقراء . وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة - أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها . وجعل للإمام

مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء .

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية , ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي , كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولا عنه , فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار , إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده , وبقي حتى اليوم وحده . نظاما فريدا متوازنا الجوانب , متعادلا الحقوق والواجبات , متناسقا تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون !

فأما القاعدة الثانية - قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . . فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول [ص] قرآنا أو سنة . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان , لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية , بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات , بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء , وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول [ص] والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها - والإمام نائب عن الأمة في هذا - وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاه الرسول في أي تشريع .

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسيبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول . وهذا لا ينقض تلك النظرية , إنما هو فرع عنها . فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه . وتنحصر سلطة الأمة - والإمام النائب عنها - في هذه الحدود . وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله . وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله . كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون , فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول . . وهو الله . . فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله: (واتقوا الله إن الله شديد العقاب). . وهذا هو الضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه , ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر , خبير بالأعمال , وإليه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم , وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة , وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصب . .

ولقد كان توزيع ذلك الفيء - فيء بني النضير - على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفيء , تحقيقا لقاعدة: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم). . فأما الحكم العام , فهو أن

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتي بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية في السياق .

ولكن القرآن لا يذكر الأحكام جافة مجردة , إنما يوردها في جو حي يتجاوب فيه الأحياء . ومن ثم أحاط كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث بصفات الواقعية الحية التي تصور طبيعتها وحقيقتها ; وتقرر الحكم حيا يتعامل مع هؤلاء الأحياء:

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله , أولئك هم الصادقون). .

وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين . . أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة . لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله . . . وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه . لا ملجا لهم سواه , ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون (ينصرون الله ورسوله). . بقلوبهم وسيوفهم في أخرج الساعات وأضيق الأوقات . (أولئك هم الصادقون). . الذين قالوا كلمة الإيمان بالسنتهم , وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض وبراهها الناس !

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم , يحبون من هاجر إليهم , ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . .

وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التي تفردت بصفات , وبلغت إلى أفاق , لولا أنها وقعت بالفعل , لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال مخلق . .

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم . . أي دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول [ص]
وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو
تعبير ذو ظلال . وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم
ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ،
كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

(يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) . . ولم يعرف تاريخ
البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم .
وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال
الأعباء . حتى ليرى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرة . لأن عدد الراغبين
في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! (ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا) . . مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال
يختصون به كهذا الفداء ، فلا يجدون في أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول: حسدا ولا ضيقا
إنما يقول: (شيئا) . مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة
لقلوبهم ، فلا تجد شيئا أصلا .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . . والإيثار على النفس مع الحاجة قمة
عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك في كل مرة
وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا .

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ
فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (10)

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . . فهذا الشح . شح النفس . هو المعوق
عن كل خير . لأن الخير بذل في صورة من الصور . بذل في المال . وبذل في العاطفة .
وبذل في الجهد . وبذل في الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم
دائما أن يأخذ ولا يهتم مرة أن يعطي . ومن يوق شح نفسه ، فقد وقى هذا المعوق عن
الخير ، فانطلق إليه معطيا باذلا كريما . وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه .

والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون: ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا
تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم . .

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهي تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز
أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار - ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية
في المدينة ، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم
المطلق من حدود الزمان والمكان - سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب
المغفرة ، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ؛ وفي طلب براءة القلب
من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور
برأفة الله ، ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة: (ربنا إنك رؤوف رحيم) . .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيفة في هذا
الوجود . تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بأخرها ، وآخرها بأولها ،

في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ; وتتفرد وحدها في القلوب , تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة , فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة , كما يذكر أخاه الحي , أو أشد , في إعزاز وكرامة وحب . وبحسب السلف حساب الخلف . ويمضي الخلف على آثار السلف . صفا واحدا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان , تحت راية الله تغذ السير صعودا إلى الأفق الكريم , متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

إنها صورة باهرة , تمثل حقيقة قائمة ; كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم . صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أمتها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذي ينغل في الصدور , وينخر في الضمير , على الطبقات , وعلى أجيال البشرية السابقة , وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميم . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين !

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة ولا سمة , ولا لمسة ولا ظل . صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقبها ; وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله , بريئة الصدور من الغل , طاهرة القلوب من الحقد , وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضا بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والاتواء . حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة , والدين كله ليس إلا فحا ينصبه رأس المال للكادحين !

(ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم) . .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَفُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13)

هذه هي قافلة الإيمان . وهذا هو دعاء الإيمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم .

الدرس الخامس: 11 - 17 الولا بين المنافقين واليهود وإغواء الشيطان لاتباعه

وحين ينتهي السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة , ورفعها علي الأفق في إطار النور . يعود إلى الحادث الذي نزلت فيه السورة , ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين :

ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم , ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم , والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأدبار , ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله , ذلك بأنهم قوم لا

يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر , بأسهم بينهم شديد , تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى , ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم , ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر . فلما كفر قال: إني بريء منك , إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها , وذلك جزاء الظالمين . .

وهي حكاية لما قاله المنافقون ليهود بني النضير , ثم لم يفوا به , وخذلوهم فيه , حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولكن في كل جملة قرآنية لفظة تقرر حقيقة , وتمس قلبا , وتبعث انفعالا , وتقر مقوما من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق .

وأول لفظة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب). فأهل الكتاب هؤلاء كفروا . والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا , وإن قوتلتم لننصرنكم). .

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون , ويؤكد غير ما يؤكدون: (والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم , ولئن قوتلوا لا ينصرونهم , ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لا ينصرون). .

وكان ما شهد به الله . وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون).

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ما خافوا أحدا من عباده . وإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه . فالعزة لله جميعا , وكل قوى الكون خاضعة لأمره , (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فمم يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله ? ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله . . (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون). .

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر في الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة . وبمضي يقرر حالة قائمة في نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب , تنشأ من حقيقتهم السابقة , ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله .

(لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15)
شتى . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون). .

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في "تشخيص" حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة . فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكان هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير !

وتبقى الملامح النفسية الأخرى (بأسهم بينهم شديد) . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم , وتجمعهم أصيرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان , والجنس والوطن والعشيرة . . (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . .

والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم , ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض , كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم ; إنما هو مظهر خارجي خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور , وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد , قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء , وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة , وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار , وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشثيثة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب . . من المسلمين . . عندما تتفرق قلوب المسلمين , فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة . فاما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز , وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب (بأسهم بينهم شديد) . . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) . .

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين , ليهون فيها من شأن أعدائهم ; ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم . فهو إحياء قائم على حقيقة ; وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت . ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله , وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد , فلم تقف لهم قوة في الحياة .

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم . فهذا نصف المعركة . والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع , وفي سياق التعقيب عليه , وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل , شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه , ويتدبره كل من جاء بعدهم , وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه , فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه الآية بعد ذلك غالبا:

(كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . .

ووقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله [ص] عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر كره اليهود ذلك , وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)
العظيم , وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم في المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما
يقوي من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله [ص] ما يتهامسون به وما يفكرون فيه
من الشر , فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه . فردوا ردا غليظا مغيظا فيه تهديد .
قالوا: يا محمد . إنك لترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب
فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين ; وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت
ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع , وجلست إلى صائغ بها , فجعلوا يريدونها على
كشف وجهها , فأبت , فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها , فلما قامت
انكشفت سواتها , فضحكوا بها , فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله
 . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب
المسلمون , فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وحاصرهم رسول الله [ص] حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبدالله بن
أبي ابن سلول يجادل رسول الله عنهم , باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد !
ولكن الحقيقة كانت هي هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل
الكتاب ! فرضي رسول الله [ص] في النهاية أن يجلوا عن المدينة , وأن يأخذوا معهم
أموالهم ومتاعهم - إلا السلاح - ورحلوا إلى الشام .

فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم . .
وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة , فانتهاوا
بهم إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلا بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان ,
الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير:

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر . فلما كفر قال: إنني بريء منك إنني أخاف الله رب
العالمين . فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها , وذلك جزاء الظالمين) . .

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان , تتفقان مع طبيعته
ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال !

وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين
الحادث المفرد والحقيقة الكلية , في مجال حي من الواقع ; ولا ينعزل بالحقائق
المجردة في الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر , ولا تستجيش
القلوب للاستجابة . وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب , ومنهج الفلاسفة
والدارسين والباحثين !

وبهذا المثل الموحى تنتهي قصة بني النضير . وقد ضمت في ثناياها وفي أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وكانت رحلة في عالم الواقع وفي عالم الضمير , تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته , وتفترق روايتها في كتاب الله عن روايتها في كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !!

الدرس السادس: 18 - 20 الدعوة إلى التقوى والتحذير من النسيان وعدم استواء أصحاب النار وأصحاب الجنة

وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة المدى يتجه الخطاب في السورة إلى المؤمنين , يهتف بهم باسم الإيمان , ويناديهم بالصفة التي تربطهم بصاحب الخطاب , وتيسر عليهم الاستجابة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

لتوجيهه وتكليفه . يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى . والنظر فيما أعدوه للآخرة , واليقظة الدائمة , والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل , ممن رأوا مصير فريق منهم , وممن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار:

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله , ولتنظر نفس ما قدمت لغد , واتقوا الله إن الله خير بما تعملون , ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم , أولئك هم الفاسقون . لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون) . .

والتقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله , ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها . حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله في كل حالة . خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب في كل لحظة . فمتى يأمن أن لا يراه !?

(ولتنظر نفس ما قدمت لغد) . .

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه . . ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته , ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة . . وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير , مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا , ونصيبه من البر ضئيلا ? إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا , ولا يكف عن النظر والتقليب !

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع:

(واتقوا الله إن الله خير بما تعملون) . .

فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء . . والله خير بما يعملون . .

وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية . من أن يكونوا (كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) . . وهي حالة عجيبة . ولكنها حقيقة . . فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى , وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى . وفي هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى , وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية , ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد .

(أولئك هم الفاسقون) . . المنحرفون الخارجون .

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار , ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار:

(لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون) . .

لا يستويان طبيعة وحالا , ولا طريقا ولا سلوكا , ولا وجهة ولا مصيرا . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق . ولا يلتقيان أبدا في سمة . ولا يلتقيان أبدا في خطة . ولا يلتقيان أبدا في سياسة . ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة . .

(أصحاب الجنة هم الفائزون) . . يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير !

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)
الدرس السابع: 21 أثر القرآن على النفوس

ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه ; وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون).

وهي صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما وجد , عندما سمع قارئاً يقرأ: والطور , وكتاب مسطور , في رق منشور , والبيت المعمور , والسقف المرفوع , والبحر المسجور , إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع . . . فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا مما ألم به !

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحويلات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد .

والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله) . . والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) . .

وهي خليفة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير . .

الدرس الثامن: 22 - 24 مجموعة من أسماء الله الحسنى وتسبيح الكون له

وأخيرا تجيء تلك التسيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ; وكأنما هي أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله , ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه ; وهذه الأسماء واضحة الآثار في صميم هذا الوجود وفي حركته وظواهره , فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها:

(هو الله الذي لا إله إلا هو , عالم الغيب والشهادة , هو الرحمن الرحيم).

(هو الله الذي لا إله إلا هو , الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحان الله عما يشركون).

(هو الله الخالق البارئ المصور , له الأسماء الحسنى , يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم).

إنها تسيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة . ذات ثلاثة مقاطع . يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد: (هو الله الذي لا إله إلا هو) . . أو (هو الله) . .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ , وأثر في حياة البشر ملموس . فهي توجي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود , وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده .

(هو الله الذي لا إله إلا هو) . . فتتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد , ووحدانية العبادة , ووحدانية الاتجاه , ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور والسلوك , وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله .

(عالم الغيب والشهادة) . . فيستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ; ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله , الذي لا يعيش وحده , ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام !

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)

(هو الرحمن الرحيم) فيستقر في الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح . ويتعادل الخوف والرجاء , والفرع والطمأنينة . فالله في تصور المؤمن لا يطارده عباده ولكن يراقبهم . ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى , ولا يتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء .

(هو الله الذي لا إله إلا هو) . . يعيدها في أول التسيحة التالية , لأنها القاعدة التي تقوم عليها سائر الصفات . .

(الملك). . فيستقر في الضمير أن لا ملك إلا الله الذي لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه , ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين في وقت واحد (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . .

(القدوس) وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور , فينظف قلبه هو وبطهره , ليصبح صالحا لتلقي فيوض الملك القدوس , والتسبيح له والتقديس .

(السلام). . وهو اسم كذلك يشع السلام والأمن والطمأنينة في جنات الوجود , وفي قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن في جواره , سالم في كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى المواعدة والسلام .

(المؤمن) واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان , حيث يلتقي فيه بالله , ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملاء الأعلى بصفة الإيمان .

(المهيمن). . وهذا بدء صفحة أخرى في تصور صفة الله - سبحانه - إذ كانت الصفات السابقة: (القدوس السلام المؤمن) صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة في الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك: (العزیز . الجبار . المتكبر). . فهي صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد في صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجيء ختام الآية: (سبحان الله عما يشركون). .

ثم يبدأ المقطع الأخير في التسيحة المديدة .

(هو الله). . فهي الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

(الخالق). . (البارئ). . والخلق: التصميم والتقدير . والبرء: التنفيذ والإخراج , فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق . .

(المصور). وهي كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة .

وتوالي هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق , يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة - حسب التصور الإنساني - فأما في عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لا يعرفها إلا الله . إنما نحن ندرك شيئا من آثارها هو الذي نعرفها به في حدود طاقاتنا الصغيرة !

(له الأسماء الحسنى). . الحسنى في ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم .

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

والحسنى التي توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهي الأسماء التي يتدبرها
المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها , إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن
يتدرج في مراقبه وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى , والسبحة البعيدة مع مدلولاتها
الموحية وفي فيوضها العجيبة , هي مشهد التسيح لله يشيع في جنات الوجود , وينبعث
من كل موجود:

يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . .

وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ; ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء . . كما
يتلاقى فيه المطلع والختام . في تناسق والتتام .

سورة الممتحنة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِقُلُوبِهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكَفِّرُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسَّيِّئُ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

الممتحنة

تقديم لسورة الممتحنة

هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي والدولة في المجتمع المدني . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ، أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة ، التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية ، في صورة واقعية عملية ، كما يستقر في الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحيانا ، وتقصر عنه أحيانا ، ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه ، تحققت يوما في هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا - كما قلنا في أول هذا الجزء - إعدادا طويلا في خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التي تقع في محيط هذه الجماعة ، أو تتعلق بها ، مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدره في علم الله ، تقوم عليها مادة أخرى هي التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

وفي مضطرب الأحداث ، وفي تيار الحياة المتدفق ، تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهي في الأرض . فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيماني الجديد ، وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه في أثناء التكوين النفسي لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائما إلى إنشاء هذا التصور الإيماني الخاص المميز ، المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة في العالم كله يومذاك ، وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة . أما الناس الذين ينشأ هذا التصور المتميز في نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث ، بل كانوا يصهرون في بوتقة الحوادث يوما بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، وبعاد صهرهم في الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة ، وتحت مؤثرات متنوعة ؛ لأن الله الذي خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضي ، وجواذب الميول الطبيعية ، والضعف البشري ، وملامسات الواقع ، وتحكم الإلف والعادة ، كلها قد تكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج في مقاومتها إلى التذكير المتكرر ، والصهر المتوالي . . فكانت الأحداث تتوالى كما هي منسوفة في قدر الله ، وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها ، والتوجيه بهديها ، مرة بعد مرة .

وكان رسول الله [ص] يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة ، واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس . والوحي

والإلهام يؤيدانه ويسددانه [ص] حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله .
بتوفيق الله . على يدي رسول الله .

هذه السورة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل , تستهدف - مع غيرها مما جاء في مثل موضوعها - إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده , يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده , بعروة واحدة لا انفصام لها ; ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل في مكانها جميعا عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . في حزب الله .

إن العالم الذي يريده الإسلام عالم رباني إنساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه , ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنساني بمعنى أنه يشمل الجنس الإنساني كله - في رحاب العقيدة - وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنسانا عن إنسان , عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله , المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة - كانت في البيئة العربية وما تزال في العالم كله إلى اليوم - عقبات من التعصب للبيت , والتعصب للعشيرة , والتعصب للقوم , والتعصب للجنس , والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب , من الحرص والشح وحب الخير للذات , ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية . . وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله في الجماعة التي يعدها لتحقيق منهج الله في الأرض في صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة في سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم في سبيل عقيدتهم , ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قربي . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى في قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ; وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهلهم وذوي قرابتهم , وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج , وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه . وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا - وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت - فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ , بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث , ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن !

وتذكر الروايات حادثا معينا نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة في سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائما أبعد من الحوادث المباشرة .

وقد قيل في هذا الحادث: إن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضا . وكان له بمكة أولاد ومال , ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفا

لعثمان . فلما عزم رسول الله [ص] على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم , وقال: " اللهم عم عليهم خبرنا " . . وأخبر رسول الله [ص] جماعة من أصحابه بوجهته , كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتابا وبعثه مع امرأة مشركة - قيل من مزينة - جاءت المدينة تسترقد - إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله [ص] على غزوهم , ليتخذ بذلك عندهم يدا . فأطلع الله - تعالى - رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره في فتح مكة . فبعث في أثر المرأة , فأخذ الكتاب منها .

وقد روى البخاري في المغازي , ورواه مسلم في صحيحه من حديث حصين بن عبدالرحمن , عن سعد ابن عبيدة عن أبي عبدالرحمن السلمي , عن علي - رضي الله عنه - قال: "بعثني رسول الله [ص] وأبا مرثد والزبير بن العوام - وكلنا فارس - وقال: " انطلقوا حتى أتوا روضة خاخ , فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين " . فأدرناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله [ص] فقلنا: الكتاب ? فقالت ما معي كتاب . فأخذناها فالتمسنا فلم نر كتابا . فقلنا: ما كذب رسول الله [ص] لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأنا الجذ أهوت إلى حجزتها , وهي محتجزة بكساء , فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله [ص] فقال عمر: يا رسول الله . قد خان الله ورسوله والمؤمنين , فدعني فلاضربن عنقه . فقال النبي [ص]: " ما حملك علي ما صنعت ? " قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمنا بالله ورسوله [ص] أردت أن تكون لي عند القوم يد . يدفع الله بها عن أهلي ومالي , وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال: " صدق لا تقولوا إلا خيرا " . فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين , فدعني فلاضرب عنقه . فقال: " أليس من أهل بدر ? " فقال - لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو - قد غفرت لكم " فدمعت عينا عمر , وقال: الله ورسوله أعلم . . وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة). . وفي رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم علي والزبير والمقداد .

ولوقوف قليلا أمام هذا الحادث وما دار بشأنه لا يخرج بنا عن " ظلال القرآن " والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله [ص] القائد المربي العظيم . .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب , وهو المسلم المهاجر , وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله [ص] على سر الحملة . . وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة , وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها ; وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول [ص] وهو لا يعجل حتى يسأل: " ما حملك على ما صنعت " في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه , وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق , ومن ثم يكف الصحابة عنه: " صدق لا تقولوا إلا خيرا " . . ليعينه وبنهضه من عثرته , فلا يطارده بها ولا يدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر: "إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعني فلاضرب عنقه" . . فعمر - رضي الله عنه - إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله [ص] فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها , ومن كل جوانبها , مع العطف الكريم

الملمه الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابس والظروف . .

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب , وهو في لحظة ضعفه , ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح . . ذلك حين يقول: "أردت أن تكون لي عند القوم يد . . يدفع الله بها عن أهلي ومالي" . . فالله هو الذي يدفع , وهذه اليد لا تدفع بنفسها , إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول: "وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع . . الله . . به عن أهله وماله" فهو الله حاضر في تصوره , وهو الذي يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها . .

ولعل حس رسول الله الملمه قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل , فكان هذا من أسباب قوله [ص]: " صدق . لا تقولوا إلا خيرا " . .

وأخيرا يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث ; وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله [ص] بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة . ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع , ولا تنفج بالقول: ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه , ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! فلم يرد من هذا شيء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم , وتواضعهم في الظن بأنفسهم , واعتبارهم بما حدث لأخيهم . . .

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ; ولكن مضمون النص القرآني - كما قلنا - أبعد مدى , وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات , بمناسبة وقوع هذا الحادث , على طريقة القرآن .

كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة , والعصبيات الصغيرة , وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلي إلى الأفق العالمي الإنساني .

وكان ينشئ في هذه النفوس صورة جديدة , وقيما جديدة , وموازين جديدة , وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان , ووظيفة المؤمنين في الأرض , وغاية الوجود الإنساني .

وكان كأنما يجمع هذه النباتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ; ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته , وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد , وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه , وأنه يريد بهم أمرا , ويحقق بهم قدرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته , ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقسام جميعا . في الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له , منقطعين لولايته , متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . في عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات , ومبايعة من يدخلن في الإسلام , والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهاي عن موالة أعداء الله , ممن غضب عليهم الله , سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التمييز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيعة الإيمان . .

الدرس الأول 1 - 2 النهي عن موالة الكفار والتهييج على معاداتهم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة , وقد كفروا بما جاءكم من الحق , يخرجون الرسول وإياكم , أن تؤمنوا بالله ربكم . إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ; ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء , وببسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء , وودوا لو تكفروا) . .

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى: يا أيها الذين آمنوا . . نداء من ربهم الذي آمنوا به , يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه . يدعوهم ليصبرهم بحقائق موقفهم , ويحذرهم حبائل أعدائهم , ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم .

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه , وعدوه عدوهم:

(لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) . .

فيشعر المؤمن بأنهم منه وإليه . يعاديه من يعاديه . فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض , وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم , وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم:

(وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم) . .

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالة والمودة ? كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول والمؤمنين , لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ? إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وهي التي حاربهم المشركون من أجلها , لا من أجل أي سبب آخر . وبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب . فهي قضية العقيدة دون سواها . قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه , والإيمان الذي من أجله أخرجوهم .

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت , ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا في سبيله:

إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي . .

فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله , مع مودة لمن أخرجته من أجل إيمانه بالله , وهو عدو الله وعدو رسول الله !

ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم , وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة , وهو مطلع على خفية القلوب وعلايتها: (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم).

ثم يهددهم تهديدا مخيفا , يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة:

(ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل). .

وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول !?

وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد . ثم تجيء البقية:

(إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء). .

فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمین حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وباللسان وبكل وسيلة وكل سبيل .

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى:

(وودوا لو تكفرون). .

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذي يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز . كنز الإيمان . ويرتد إلى الكفر , هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر , ويهتدي بنوره بعد الضلال , ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامه طريقه وطمانينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار . أو أشد . فعدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان , وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور .

لهذا يتدرج القرآن في تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائهم وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: (وودوا لو تكفرون). .

الدرس الثاني:3 انقطاع الروابط يوم القيامة إلا الإيمانية

هذه هي الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ; والتي تشتجر في القلوب فتجرها جرا إلى المودة ; وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة:

(لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير). .

إن المؤمن يعمل وبرجو الآخرة . يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع ووشائج القربى كلها إذا تقطعت ووشيجة العقيدة , من شأنها أن

تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة ; وتوجهه إلى طلب
الوشيجة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة:

ومن ثم يقول لهم: (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم). . التي تهفون إليها وتتعلق قلوبكم
بها ; وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها - كما حدث لحاطب في حرصه
على أولاده وأمواله - وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين
خلفوهم في دار الهجرة . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . ذلك أنه (يوم القيامة يفصل
بينكم). . لأن العروة التي تربطكم مقطوعة . وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله .

(والله بما تعملون بصير). . مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه في الضمير

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَخِيَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)

الدرس الثالث: 4 - 6 الدعوة للإقتداء بإبراهيم ومن معه في الولاء والبراء

ثم تأتي الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة: أمة التوحيد . وهذه
القافلة الواحدة: قافلة الإيمان . فإذا هي ممتدة في الزمان , متميزة بالإيمان , متبرئة
من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة . . إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول
وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لا في العقيدة وحدها , بل كذلك في السيرة , وفي
التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ; ثم خلص منها هو ومن آمن معه ,
وتجرد لعقيدته وحدها:

(قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ; إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ,
ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم , وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى
تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه , لأستغفرن لك , وما أملك لك من الله من شيء .
ربنا عليك توكلنا , وإليك أنبنا , وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ,
وآغفر لنا ربنا , إنك أنت العزيز الحكيم . . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد). .

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق , وماض طويل , وأسوة ممتدة على آمد الزمان .
وإذا هو راجع إلى إبراهيم , لا في عقيدته فحسب , بل في تجاربه التي عاناها كذلك .
فيشعر أن له رصيда من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي
يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ,
الواقفين تحت راية الله , قد مرت بمثل ما يمر به , وقد انتهت في تجربتها إلى قرار
اتخذته . فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين . . ثم إن له لأمة
طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها , إذا انبثت الروابط بينه وبين أعداء
عقيدته . فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال
. . الشجرة التي غرسها أول المسلمين . . إبراهيم . .

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة: (إذ قالوا لقومهم: إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله , كفرنا بكم , وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده). .

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيخة العقيدة وأصرة الإيمان . وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل . وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرياهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: (لأستغفرن لك). .

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه). . كما جاء في سورة أخرى .

وبثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله , وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال:

(وما أملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير). .

وهذا التسليم المطلق لله , هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبناء المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه , وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

على طريقة القرآن الكريم .

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه:

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا). .

فلا تسلطهم علينا . فيكون في ذلك فتنة لهم , إذ يقولون: لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ! وهي الشبهة التي كثيرا ما تحيك في الصدور , حين يتمكن الباطل من الحق , ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء , ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور .

وبقية الدعاء:

(واغفر لنا). .

يقولها إبراهيم خليل الرحمن . إدراكا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه , وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه , ويمجد جلاله وكبريائه فيطلب المغفرة من ربه , ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده .

ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء:

(ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) . .

العزيز:القادر على الفعل , الحكيم:فيما يمضي من تدبير .

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه , وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ; مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين:

(لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . .

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . وهؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم , ويجدون فيها أسوة تتبع , وسابقة تهدي . فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - (فإن الله هو الغني الحميد) . .

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد , ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض ; وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة , ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ; ووجدوها طريقا معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين , فلا يشعر بالغرابة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل ! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق !

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة العداء والجفوة التي

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيْنًا مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

الدرس الرابع: 7 - 11 تصنيف الكفار حسب العداوة وامتحان المهاجرات ونتائجه تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية في أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام , وإلى صفوف المسلمين ; فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين . . ثم يخفف عنهم مرة أخرى - وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم , فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداة والعدوان . فأما حين ينتفي العداة والعدوان فهو البر لمن يستحق البر , وهو القسط في المعاملة والعدل :

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة , والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم , وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) . .

إن الإسلام دين سلام , وعقيدة حب , ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله , وأن يقيم فيه منهجه , وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين . وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله . فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة , انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضوا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس , فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفي الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذي لا يغلب عليه اليأس ; في معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين , وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة :

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . .

وهذا الرجاء من الله , معناه القطع بتحقيقه . والمؤمنون الذين سمعوه لا بد قد أيقنوا به , ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة , وأن أسلمت قريش , وأن وقف الجميع تحت لواء واحد , وأن طويت الثارات والمواجد , وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفي القلوب .

(والله قدير) . . يفعل ما يريد بلا معقب .

(والله غفور رحيم) . . يغفر ما سلف من الشرك والذنوب . .

وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم في مودة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم , وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئا . ولكنه نهى أشد النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون . . ومن معاني الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) . . وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن , ويتقي أن يدخل في مدلوله المخيف !

وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية , بل نظرتة الكلية لهذا الوجود , الصادر عن إله واحد , المتجه إلى إله واحد , المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي , من وراء كل اختلاف وتنوع .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْقَفُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْقَفْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْقَفُوا ذَلِكَمْ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ قَاتَكُمْ سَيِّئٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ دَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْقَفُوا وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

وهي أساس شريعته الدولية , التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة , لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده , أو خوف الخيانة بعد المعاهدة , وهي تهديد بالاعتداء ; أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين .

ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصور الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها ; ويجعل القيمة التي يرضن بها المؤمن ويقا تل دونها هي قضية العقيدة وحدها . فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد , وتحقيق منهج الله في الأرض , وإعلاء كلمة الله .

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة , وجعلها هي الراهة الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون . فمن وقف معهم تحتها فهو منهم , ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم . ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم , ولم يصد الناس عنها , ولم يحل بينهم وبين سماعها , ولم يفتن المؤمنين بها , فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته , ويجعلها قضيتة مع نفسه ومع الناس من حوله . فلا خصومة على مصلحة , ولا جهاد في عصبية - أي عصبية - من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب . إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا , ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة .

ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . الخ) . . فانتتهت بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة . بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسماة الأجل , ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسماة . ولكن هذا إنما كان بعدما أثبت التجارب أن القوم لا يراعون عهودهم مع المسلمين إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الراحون ! فانطبقت القاعدة الأخرى: (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) . . وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة الإسلامية - وهي حينئذ شبه الجزيرة كلها - من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعاشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدرا تهم ونقضهم للعهود . وهي حالة اعتداء في صميمها . تنطبق عليها حالة الاعتداء . وبخاصة أن الأمبراطوريتين المحيطتين بأرض الإسلام قد بدأتا

تجمعان له وتشعران بخطرته , وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة الخاضعة للدولتين الرومانية والفارسية . فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامي من بقية أعدائه قبل الالتحام في المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد لنعود إلى سياق السورة في حكم المؤمنات المهاجرات: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن , الله أعلم بإيمانهن , فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار , لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن , وأتوهم ما أنفقوا , ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ; ولا تمسكوا بعصم الكوافر , وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم , والله عليم حكيم . وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا , واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . .

وقد ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: "على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا" . . فلما كان الرسول [ص] والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءت نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة ; وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة . وبظهر أن النص لم يكن قاطعا في موضوع النساء , فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار , يفتن في دينهن وهن ضعاف .

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها , تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر , وما فيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية .

وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحري سبب الهجرة , فلا يكون تخلصا من زواج مكروه , ولا طلبا لمنفعة , ولا جريا وراء حب فردي في دار الإسلام !

قال ابن عباس: كان يمتحنهن: بالله ما خرجت من بغض زوج , وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض , وبالله ما خرجت التماس دنيا , وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله .

وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله , وما جاء بك عشق رجل منا , ولا فرارا من زوجك .

وهذا هو الامتحان . . وهو يعتمد على ظاهر حالهن واقرارهن مع الحلف بالله . فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله , ولا سبيل للبشر إليها: (الله أعلم بإيمانهن . .) فإذا ما أقررن هكذا (فلا ترجعهن إلى الكفار) . .

(لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) . .

فقد أنبتت الوشيحة الأولى . . وشيحة العقيدة . . فلم تعد هناك وشيحة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار , لا يمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيحة الأولى . والإيمان هو قوام حياة القلب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى , فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوز معه , ولا أن يأنس به , ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن .

وكان الأمر في أول الهجرة متروكا بغير نص , فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ; ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة , لأن المجتمع الإسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد . فأما بعد صلح الحديبية - أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة - فقد أن تقع المفاصلة الكاملة ; وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات , كما يستقر في واقعهم , أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان , وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة , وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله .

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض - على مقتضى العدل والمساواة - فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التي فارقت تعويضا للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التي يطلقها من عصمته .

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن . . مع خلاف فقهي: هل لهن عدة , أم لا عدة إلا للحوامل حتى يضعن حملهن ? وإذا كانت لهن عدة فهل هي عدة المطلقات . . . ثلاثة قروء . . أم هي عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ?

(وآتوهن ما أنفقوا , ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الكوافر , وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا).

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى في ضمير المؤمن . ضمانه الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه:

(ذلكم حكم الله يحكم بينكم , والله عليم حكيم).

وهي الضمانة الوحيدة التي يؤمن عليها من النقص والالتواء والاحتيايل . فحكم الله , هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور . وهو حكم القوي القدير . وبكفي أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة , ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه وبرعاه . وهو يوقن أن مرده إلى الله .

فإذا فات المؤمنين شيء مما أنفقوا , بامتناع الكوافر أو أهليهن من رد حق الزوج المؤمن - كما حدث في بعض الحالات - عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم في دار الإسلام , أو مما يقع من مال الكفار غنيمة في أيدي المسلمين:

(وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذي يتعلق به كل حكم وكل تطبيق:

(واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون).

وهي لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر في القلوب .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقا واقعا للتصور الإسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها ; وعن وحدة الصف الإسلامي وتميزه من سائر الصفوف ; وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة , وربطها كلها بمحور الإيمان ; وإنشاء عالم إنساني تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض . وتبقى شارة واحدة تميز

الناس . . شارة الحزب الذي ينتمون إليه . . وهما حزبان اثنان:حزب الله وحزب الشيطان . .

الدرس الخامس:12 مبايعة المؤمنات

ثم بين لرسول الله [ص] كيف يبايعهن على الإيمان , هن وغيرهن ممن يردن الدخول في الإسلام . وعلى أي الأسس يبايعهن:

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على ألا يشركن بالله شيئاً , ولا يسرقن , ولا يزنين , ولا يقتلن أولادهن , ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن , ولا يعصينك في معروف , فبايعهن , واستغفر لهن الله , إن الله غفور رحيم . .

وهذه الأسس هي المقومات الكبرى للعقيدة , كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة . .

إنها عدم الشرك بالله إطلاقاً . . وعدم إتيان الحدود . . السرقة والزنا . . وعدم قتل الأولاد . . إشارة إلى ما كان يجري في الجاهلية من وأد البنات , كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب . . وهن أمينات على ما في بطونهن . . (ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن). . قال ابن عباس:يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ - بعد المبايعة على عدم الزنا - كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال , فإذا جاءت بولد , نظرت أيهم أقرب به شبيهاً فألحقته به , وربما اختارت هي أحسنهم فألحقت به ابنها وهي تعلم من هو أبوه !

وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور يدعى . ولعل ابن عباس ومقاتل خصصاه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعِهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13) والشرط الأخير: (ولا يعصينك في معروف). . وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول [ص] في كل ما يأمرهن به . وهو لا يأمر إلا بمرعوف . ولكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور في الإسلام , وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر ! وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله , لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله , ومنها يستمدان السلطات !

فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن . واستغفر لهن الرسول [ص] عما سلف (إن الله غفور رحيم). . يغفر ويرحم ويقل العثرات .

الدرس السادس:13 النهي عن موالة الكفار

وفي الختام يجيء هذا الإيقاع العام:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم , قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور).

يجيء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمان , وبالصفة التي تميزهم عن سائر الأقوام , إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود , استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة في مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم في السورة , وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يئس من الآخرة , لا يعلق بها رجاء , ولا يحسب لها حسابا كياس الكفار من الموتى - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى , وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذي تترك السورة أصداءه في القلوب . .

سورة الصف

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

سورة الصف

مقدمة لسورة الصف

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح , إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذنبك الأمرين الأساسيين:

تستهدف أولاً أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة , سبقته صور منه تناسب أطواراً معينة في تاريخ البشرية , وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات , تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد , الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله في الأرض . .

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا , ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض: (وإذ قال موسى لقومه: يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم , والله لا يهدي القوم الفاسقين) . . وإذن فقد انتهت قوامه قوم موسى على دين الله ; فلم يعودوا أمناء عليه , مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم , ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى , ومصداقاً لما بين يديه من التوراة , وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها ; ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير: وإذ قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم , مصداقاً لما بين يدي من التوراة , ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به .

وكان مقرراً في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم , وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة على يدي رسوله الأخير: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة , وإدراكه لقصة العقيدة , ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض . . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله - كما أراد الله - وعدم التردد بين القول والفعل ; ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه , كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجيء في مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله . . (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ? كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص).

ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة: (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ? تؤمنون بالله ورسوله , وتجاهدون في سبيل

الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار , ومساكن طيبة في جنات عدن , ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب , وبشر المؤمنين).

ثم يختم السورة ببناء أخير للذين آمنوا , ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله , على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة , فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين).

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح , يستغرقان كل نصوصها تقريبا . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة - وهذه قصتها وهذه غايتها - وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى , عن رسول الله [ص] بعد ذكر تبشير عيسى - عليه السلام - به: (فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ? والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم نوره , ولو كره الكافرون).

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض ; وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه ; يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله , كما يحب الله ; ويتضح طريقه , فلا يبقى في تصويره غبش , ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغة في هذه القضية , أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد .

وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل , وألا يختلف له قول وفعل , ولا ظاهر وباطن , ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه في كل حال . متجردا لله . خالصا لدعوته . صريحا في قوله وفعله . ثابت الخطو في طريقه . متضامنا مع إخوانه . كالبنيان المرصوص . .

الدرس الأول: 1 تسيح ما في الوجود لله

(سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم).

تجيء هذه التسيحة من الوجود كله لله العزيز الحكيم , في مطلع السورة التي تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة في دين الله ; وأنهم هم الأمانة على هذا الدين الذي يوحد الله , وينكر على الكافرين المشركين كفرهم وشركهم , والذي يدعوهم للجهاد لنصرته , وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيوحي هذا المطلع أن الأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي أمانة الوجود كله ; وأن العقيدة التي يطلب إليهم الجهاد فيها هي عقيدة كل ما في السماوات وما في الأرض ; وأن ظهور هذا الدين على الدين كله , هو ظاهرة كونية تتسق مع اتجاه الكون كله إلى الله العزيز الحكيم .

الدرس الثاني: 2 - 4 لوم من يقول ولا يفعل ومحبة الله للمجاهدين

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديدا على أمر حدث من طائفة منهم . أمر يكرهه الله أشد الكره , ويمقته أكبر المقته , ويستفضعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص:

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا , كأنهم بنيان مرصوص . .)

قال علي بن طلحة عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لو دنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه , فنعمل به , فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه , وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ,

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)

وشق عليهم أمره , فقال الله سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . . .). . وقد اختار ابن جرير في تفسيره هذا القول .

وقال ابن كثير في تفسيره: "وحملوا الآية - يعني الجمهور - على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم , فلما فرض نكل عنه بعضهم , كقوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة , فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل: متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا . أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم في بروج مشيدة). .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون: قتلنا . ضربنا . طعنا . وفعلنا . . . ولم يكونوا فعلوا ذلك !

والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هي التي عليها الجمهور وهي اختيار ابن جرير . ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهتها , وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة , مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول .

إنها تبدأ بعتاب على حدث وقع أو حوادث:

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟).

وتشني باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق في صيغة تضخم هذا الاستنكار:

(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ؟). .

والمقت الذي يكبر (عند الله). . هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر . . وهذا غاية التفضيع لأمر , وبخاصة في ضمير المؤمن , الذي ينادي بإيمانه , والذي يناديه ربه الذي آمن به .

والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعلوا . . وهو الجهاد . . وتقرر ما يحبه الله فيه وبرضاه:

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص). .

فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال في سبيله . والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال في ثبات وضمود (صفا كأنهم بنيان مرصوص). .

إن القرآن - كما قلنا في مناسبات متعددة في هذا الجزء - كان يبني أمة . كان يبنيها لتقوم على أمانة دينه في الأرض , ومنهجه في الحياة , ونظامه في الناس . ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفرادا وبينها جماعة , وبينها عملا واقعا . . كلها في آن واحد . . فالمسلم لا يبني فردا إلا في جماعة . ولا يتصور الإسلام قائما إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط , وذات نظام , وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو إقامة هذا المنهج الإلهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض . وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج في حدود ذلك المنهج الإلهي .

والإسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعية الفردية - ليس دين أفراد منعزلين , كل واحد منهم يعبد الله في صومعة . . إن هذا لا يحقق الإسلام في ضمير الفرد ذاته , ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته . ولم يجرئ الإسلام لينعزل هذه العزلة . إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها . ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه . والبشرية لا تعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأمم . والإسلام جاء ليحكمها وهي كذلك . وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش في جماعة . وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون إلى الله , ويقوم - فيها - على أمانة دينه في الأرض , ومنهجه في الحياة , ونظامه في الناس .

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامي - أو جماعة مسلمة - ذات قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله [ص] وذات التزامات جماعية بين أفرادها , وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها , وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها - في الوقت ذاته - حياة هذه الجماعة . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة في المدينة . .

وننظر في هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردي بالحاجة الجماعية , في ظل العقيدة الدينية , وطبيعتها التي تقتضي تحقيقها في الحياة البشرية في صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه .

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون . .

وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم . . الصدق . . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهره , وأن يطابق فعله قوله . . إطلاقا . . وفي حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذي يجيء في الآية الثالثة .

وهذه السمة في شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا , وتتابعها السنة في تكرر يزيدتها توكيدا: يقول الله تعالى منددا باليهود: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون ?) . . ويقول تعالى منددا بالمنافقين: (ويقولون: طاعة . فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول). . ويقول فيهم كذلك: (ومن

الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ,
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد). .
ويقول رسول الله [ص]: " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب , وإذا وعد أخلف , وإذا
أؤتمن خان " . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ولعل الحديث الذي سنذكره هنا من
أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة في هذا الاتجاه . . روى الإمام أحمد وأبو داود
عن عبدالله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله [ص] وأنا صبي , فذهبت لأخرج
لألعب . فقالت أمي: يا عبدالله تعال أعطك . فقال لها رسول الله [ص]: " وما أردت أن
تعطيه ! " فقالت: تمرا . فقال: " أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة " . . ولعله
استقاء من هذا النوع النبوي الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه -
من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا . حينما وجده يضم
حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ ! فتخرج أن يروي عنه , وقد كذب على
بغلته !

فهذا بناء أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمن يقوم أمينا على
منهج الله في الأرض . وهو الأمر الذي تقرره هذه السورة . وهذه حلقة من حلقات
التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذي كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها . . وهو موضوع
الجهاد . . فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولا أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة , فلا يعصمها منها إلا
عون الله , وإلا التذكير الدائم , والتوجيه الدائم , والتربية الدائمة . . فهؤلاء جماعة من
المسلمين قيل في بعض الروايات: إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله
لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم
 وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (فلما كتب عليهم القتال) في المدينة في الوقت المناسب
الذي قدره الله (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية , وقالوا: ربنا
لم كتبت علينا القتال ? لولا أخرجنا إلى أجل قريب !). . أو هم جماعة من المسلمين في
المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية
والتثبيت والتوجيه ; وهي تواجه التكاليف الشاقة , لتستقيم في طريقها , وتتغلب على
لحظات ضعفها , وتتطلع دائما إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع في طلب
التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين
يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون ; حتى
يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد , وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص . . نقف
أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله . . وأول ما يسجل هنا أنه كان
لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكرهية للقتال . ولكن هذا السبب الغريب في الحادث
المحدود لا ينبغي أن الحظ عام , وأن وراءه حكمة دائمة .

إن الإسلام لا يتشهى القتال , ولا يريده حبا فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه , ولأن
الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة
المستقرة . وهذا المنهج - ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة - إلا أنه يكلف النفوس جهدا
لتسمو إلى مستواه , ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه

الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر , لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات , التي تستند إلى قيم باطلّة زائفة , يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه , كما تستغل جهل العقول , وموروثات الأجيال , لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عارم . والباطل متبجح . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم , وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد , وحرية الاعتقاد به , وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون في سبيل الله . . لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون . . عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت . . . في سبيل الله وحده , لتكون كلمة الله هي العليا . والرسول [ص] يقول: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ (4)
وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا - نحن البشر - هي التي تتفق مع الناموس الذي يسير عليه الكون كله . الكون الذي يسبح بحمد ربه . ومنهج الله في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس ; ويجعل الكون كله - والناس من ضمنه - يحكمون بشريعة الله . لا بشريعة يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد , وأن تقاومه طبقات , وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة ; ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج , وتحقيق كلمة الله في الأرض . ولهذا أحب الله - سبحانه - الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

ونقف ثالثا أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: (صفا كأنهم بنيان مرصوص). . فهو تكليف فردي في ذاته , ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية , ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ; فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . صفا سويا منتظما , وصفا متينا راسخا ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة , وأن ينشئ مجتمعا متماسكا . . متناسقا . فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده , ويجاهد وحده , ويعيش وحده , صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين , وعن مقتضياته في حالة الجهاد , وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم , وتوضح لهم معالم الطريق , وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: (صفا كأنهم بنيان مرصوص). . بنيان تتعاون لبناته وتتضامن وتتماسك , وتؤدي كل لبنة دورها , وتسد ثغرتها , لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء . وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء . . إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة , ولطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة . ارتباط الشعور , وارتباط الحركة , داخل النظام المرسوم , المتجه إلى هدف مرسوم .

الدرس الثالث: 5 - 6 موسى وعيسى يقرعان بني إسرائيل لسوء فعلهم

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهي ومراحلها في الرسالات قبل الإسلام .

(وإذ قال موسى لقومه: يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما زاعوا أزرع الله قلوبهم , والله لا يهدي القوم الفاسقين).

وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . .

وإذاء بني إسرائيل لموسى - وهو منقذهم من فرعون وملئه , ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متطاوول متعدد الألوان , وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضمّن عسير شاق . ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم , ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين: (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا)! كانهم لا يرون في رسالته

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)
خيرا , أو كأنما يحملونه تبعه هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون . . حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه . . (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) . . وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح , حتى أضلهم السامري:(فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي !) . .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء: المن والسلوى . فقالوا: (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها)!

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيتئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) . . (ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) . . (ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا) . . (فذبحوها وما كادوا يفعلون)!

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه .

وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم في الوقت ذاته لموسى:(قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين , وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) . . فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا:(قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) . .

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد , والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة:

(يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم?). .

وهم كانوا يعلمون عن يقين . . إنما هي لهجة العتاب والتذكير . .

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة , فزادهم الله زيغا , وأزاع قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وصلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا: (والله لا يهدي القوم الفاسقين). .

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله , فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر , وهم على هذا الزيغ والضلال .

ثم جاء عيسى بن مريم . جاء يقول لبني إسرائيل:

(يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم). .

فلم يقل لهم: إنه الله , ولا إنه ابن الله , ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

(مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد). .

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة , يسلم بعضها إلى بعض , وهي متماسكة في حقيقتها , واحدة في اتجاهها , ممتدة من السماء إلى الأرض , حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة . . وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد في أصله , متعدد في صورته , وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها , ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري , فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة , تخاطب العقل الراشد , في ضوء تلك التجارب , وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده ,

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7)

داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته , المتفق مع طاقاته واستعداداته .

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص , سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: (النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل). . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبدالله بن سلام بهذه الحقيقة , التي كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلم زمانه , وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم , كرهوا هذا وحاربوه !

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير

الدرس الرابع:7- 9 فشل الأعداء في ضرب الإسلام ووعدهم الله بظهوره ونصره

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل - اليهود والنصارى - للنبي الذي بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال , وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله , وأن يكون هو الدين الأخير !

فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ? والله لا يهدي القوم الظالمين , يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . .

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداة والكيد والتضليل , وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام: (فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين). . كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقية داخل المعسكر الإسلامي , للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة , وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب . وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبدالله بن أبي بن سلول , ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبدالله بن سبا . وحاربوه بالكاذب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام , وظلتا تغييران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال . حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق , وحاربوه في الأندلس في المغرب , وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض" . . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكائدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم "الخلافة" والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا "بطلا" ! . . ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا في أعين مواطنيه . بطلا يستطيع إلغاء الخلافة , وإلغاء اللغة العربية وفصل تركيا عن المسلمين , وإعلانها دولة مدنية لا علاقة

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)
لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين , ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون) . .

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة , ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: (هذا سحر مبین) . ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

(والله متم نوره ولو كره الكافرون) . . وصدق وعد الله . أتم نوره في حياة الرسول [ص] فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة , تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب , ولكن حقيقة في عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا يحبونه , ويجاهدون في سبيله , ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين . وتنبض وتنتفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتكيد وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه , ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد , في أيدي العبيد ! وإن خيل للطلافة الجبارين , وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين , فكان من الحتم أن يكون:

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله , ولو كره المشركون) . .

وشهادة الله لهذا الدين بأنه (الهدى ودين الحق) هي الشهادة . وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر في ذاته كدين , فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال . وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها , وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها , فهو هي , في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها , ونقصت من أطرافها , وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة . وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا , لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود .

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة , فقد صدق وعد الله مرة , فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت

له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية , حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى . . وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي "البطل" الذي صنعوه ! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد , ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي "أبطال" آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء .

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها , ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعده الله , الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل , مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر , وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم , وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة . بإذن الله .

الدرس الخامس: 10 - 14 الجهاد الرابع ومكاسبه وثمراته في الدنيا والآخرة والدعوة ليكونوا أنصار الله

وفي ظلال قصة العقيدة , وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير , يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا . . من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين . . يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله:

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن , ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب , وبشر المؤمنين) . .

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل , واستفهام وجواب , وتقديم وتأخير , صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: يا أيها الذين آمنوا . . يليه الاستفهام الموحى . فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . .?)

ومن ذا الذي لا يشواق لأن يدلّه الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: (تؤمنون بالله ورسوله). . وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! (وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم). . وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة ، يجيء في هذا الأسلوب ، وبكرر هذا التكرار ، ويساق في هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار ، وهذا التنوع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض . . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون). . فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد . . ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره في الحس ويمكن له: (يغفر لكم ذنوبكم). . وهذه وحدها تكفي . فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن). . وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم . . . وحقا . . (ذلك الفوز العظيم).

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا وبأخذ الآخرة . فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق . فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض ، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع ؟

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا تَصَرُّوْنَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله [ص] وعبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة . قال لرسول الله [ص]: "اشتريت لربك ولنفسك ما شئت" . فقال [ص]: "أشترت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترت لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم" . . قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال: " الجنة " قالوا: " ربح البيع ولا نقيلا ولا نستقيل " !

ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشري المحدود . وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل: (وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين). .

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله . الله الذي لا تنفذ خزائنه ، والذي لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة . وفوقها . . فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسية النصر والفتح القريب . . فمن الذي يدلّه الله على هذه التجارة ثم يتفاحس عنها أو يحيد ؟!

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب . . إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ؛ ويعيش بقلبه في هذا التصور ؛ ويطلع على آفاقه وأماده ؛ ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها

الهابطة الواطية , وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة . . هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان , ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع , ليعيش فيه , وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك . . ولعله لا يطلب على جهاده هذا اجرا خارجا عن ذاته . فهو ذاته اجر . . هذا الجهاد . . وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد . كائنا مصيره فيه ما يكون . .

ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف , وأن الاندفاع يهبط , وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط . .

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ; ويعالجها ذلك العلاج , ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع , في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان , ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان .

فهذا هو ذا يختم السورة بنداء جديد , يحمل طابعا جديدا , وإغراء جديدا , وموحيا جديدا:

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله , كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين . .

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به , وينقطعون للتلقي عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة , فنسبر نحن معها في ظلالاتها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله). . في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب !? إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم . . كونوا أنصار الله , (كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّنت طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)

الله). . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبى الجديد والدين الأخير . . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم , كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ?

(فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة , فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين). .

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات , وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصرروا على التوحيد في وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير ; وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها , وهي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير , الأمانة على منهج الله في الأرض , وورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه (كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله ? قال الحواريون: نحن أنصار الله). . والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة في السورة , واللمسة الأخيرة في السياق ; وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها , مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق . .

سورة الجمعة

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

سورة الجمعة

تقديم لسورة الجمعة

نزلت هذه السورة بعد سورة "الصف" السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عالجه سورة الصف , ولكن من جانب آخر , وبأسلوب آخر , وبمؤثرات جديدة .

إنها تعالج أن تقر في أخلاذ الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ;

وأن هذا فضل من الله عليها ; وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر , وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول , واحتملت الأمانة ; وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبثة , فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ; وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا , ولا وظيفة له في إدراكها , ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص , وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة , وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ; في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح , وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى , والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله [ص] يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ; فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به - على عادة الجاهلية - من ضرب بالدفوف وحذاء وهيصة ! وتركوا رسول الله [ص] قائما . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات , التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد , ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها في القرآن الكريم .

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ; وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعا . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال , لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة , وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفي السورة مباحلة مع اليهود , بدعوتهم إلى تمني الموت للمبطلين من الفريقين وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس , وأنهم شعب الله المختار , وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباحلة التي دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه , وأنه ملاقيهم مهما فروا , وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فمنبتهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم , إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض , لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة , وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها , مع تميز كل منهما بالجانب الذي تعالجه , وبالأسلوب الذي تأخذ القلوب به , والظلال التي تلقىها هذه وتلك في الإتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآني هذا الاتجاه . .

الدرس الأول: 1 تسبيح ما في الوجود لله

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض , الملك القدوس العزيز الحكيم) . .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2)

هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما في الوجود لله ; ويصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التي اسمها "الجمعة" وفيها تعليم عن صلاة الجمعة , وعن التفرغ لذكر الله في وقتها , وترك اللهو والتجارة , وابتغاء ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . ومن ثم تذكر: (الملك) . . الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر (القدوس) الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السماوات والأرض , بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر (العزيز) . . بمناسبة المباحلة التي يدعى إليها اليهود والموت الذي لا بد أن يلاقي الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر (الحكيم) . . بمناسبة اختياره الأميين ليعث فيهم رسولا يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

الدرس الثاني: 2 - 4 مهمة الرسول وطبيعة رسالته وأثره في أمته

ثم يبدأ في موضوع السورة الرئيسي:

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم , ويعلمهم الكتاب والحكمة , وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وأخبرين منهم لما يلحقوا بهم , وهو العزيز الحكيم) . .

قيل إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - في الأعم الأغلب - وروي عن النبي [ص] أنه قال: الشهر هكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال: "إنا نحن أمة

أمية لا نحسب ولا نكتب " . . . وقيل: إنما سمي من لا يكتب أميا لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم , لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم: إنهم "جوييم" باللغة العبرية أي أمميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! - والنسبة في العربية إلى المفرد . . أمة . . أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم , فيجمعهم بعد فرقة , وينصرهم بعد هزيمة , ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب , أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب , من الأميين غير اليهود ; فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية - كما سيحيى في المقطع التالي في السورة - وأنها زاعت وضلت كما جاء في سورة الصف . وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل !

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم , ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك , ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم) . .

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب , ومن وراء القرون , محفوظة عند الله لا تضع , حتى يحيى موعدها المقدور في علم الله , وفق حكمته ; وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قدر الله وتنسيقه , وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء , ولا يستأخر عن موعده المرسوم .

وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتدبيره - بنصها الذي تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألقاها إبراهيم . . (رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) . . كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم: (إنك أنت العزيز الحكيم) هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا: (وهو العزيز الحكيم) .

وقد سئل رسول الله [ص] عن نفسه فقال: " دعوة أبي إبراهيم . وبشري عيسى . ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام "

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . .

والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين لجعلهم أهل الكتاب المبين ; وليرسل فيهم رسولا منهم , يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ; ويخرجهم من أميتهم أو من أمميتهم بتلاوة آيات الله عليهم , وتغيير ما بهم , وتمييزهم على العالمين . .

(وبزكيتهم). . وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول [ص] تطهير للضمير والشعور , وتطهير للعمل والسلوك , وتطهير للحياة الزوجية , وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ; ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح , ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال . . إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه , ويتعامل مع الملائكة الأعلى ; ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملائكة العلووي الكريم .

(ويعلمهم الكتاب والحكمة). . يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب . ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور , ويحسنون التقدير , وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .

(وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين). . ضلال الجاهلية التي وصفها جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة ليكرهاه في المهاجرين من المسلمين , ويشوها موقفهم عنده , فيخرجهم من ضيافته وجيرته . . فقال جعفر:

"أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام , ونأكل الميتة , ونأتي الفواحش , ونقطع الأرحام , ونسيء الجوار , ويأكل القوي منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا , نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ; وأمرنا بصدق الحديث , وأداء الأمانة , وصلة الرحم , وحسن الجوار , والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور , وأكل مال اليتيم , وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا , وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام" . .

وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْإِجْمَارِ يُحْمَلُ أَسْفَارًا يَنْسَخُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)

ومع كل ما كانوا عليه في الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمانة عليها , بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ; ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ; وقد فرغت منه نفوس اليهود التي أفسدها الذل الطويل في مصر , فامتلات بالعقد والالتواءات والانحرافات , ومن ثم لم تستقيم أبدا بعد ذلك , لا في حياة موسى عليه السلام , ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه , وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة في ذلك الأوان هي خير مهد للدعوة التي جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية , ومن انحلال الحضارة في الامبراطوريات الكبيرة , التي كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التي يصفها كاتب أوربي حديث فيقول:

"ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت , ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى التي تكلف بناؤها

أربعة آلاف سنة , مشرفة على التفكك والانحلال ; وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية , إذ القبائل تتحارب وتتناحر , لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهياب بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية , كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله , واقفة تترنج وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه " . .

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربي . وهي من زاوية النظر الإسلامية أشد عتاما وظلاما !

وقد اختار الله - سبحانه - تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين , بما علم في نفوسها وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم , وهو العزيز الحكيم) . .

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة . .

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله , حدثنا سليمان بن بلال , عن ثور , عن أبي الغيث , عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كنا جلوسا عند النبي [ص] فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا , وفيما سلمان الفارسي , فوضع رسول الله [ص] يده على سلمان الفارسي ثم قال : " لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء " . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد في هذه الآية : هم الأعاجم وكل من صدق النبي [ص] من غير العرب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي , حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي , حدثنا الوليد بن مسلم , حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم , عن سهل بن سعد الساعدي . قال : قال رسول الله [ص] : " إن في أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب " ثم قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . يعني بقية من بقي من أمة محمد [ص] .

وكلا القولين يدخل في مدلول الآية . فهي تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذي نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة في شباب الأرض وفي شباب الزمان , تحمل هذه الأمانة الكبرى , وتقوم على دين الله الأخير .

(وهو العزيز الحكيم) . . القوي القادر على الاختيار . الحكيم العليم بمواضع الاختيار . .

واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء , والله ذو الفضل العظيم) . .

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى , وليكون مستودع نور الله وموضع تلقي فيضه , والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض . . إن اختيار الله هذا

لفضل لا يعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ; ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد .

والله يذكر الجماعة المسلمة في المدينة , والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل في اختيارهم لهذه الأمانة , ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين في أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهي , ومن الأمثلة الواقعية في حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذي تصغر إلى جانبه جميع القيم , وجميع النعم ; كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام . .

الدرس الثالث: 5 اليهود مع التوراة كالحمار يحمل الأسفار

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله ; فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل:

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لا يهدي القوم الظالمين) . .

فبنوا إسرائيل حملوا التوراة , وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة . . (ثم لم يحملوها) . . فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه , وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة , ولا أنهم فقهوا حقيقتها , ولا أنهم عملوا بها . ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام , وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكا في الغاية منها !

وهي صورة زرية بئسة , ومثل سيئ شائن , ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين عبرت بهم أجيال كثيرة , والذين يعيشون في هذا الزمان , وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب , وهم لا ينهضون بما فيها . . أولئك كلهم , كالحمار يحمل أسفارا . وهم كثيرون كثيرون ! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن رَّعَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنِّي دُونَ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَتُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِن الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

الدرس الرابع: 6 - 8 مباحلة القرآن لليهود وكان اليهود يزعمون - كما يزعمون حتى اليوم - أنهم شعب الله المختار , وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم "الجويم" أو الأميون أو الأميون . وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع

غيرهم من الأميين: (قالوا ليس علينا في الأميين سبيل). . إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التي تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين:

(قل: يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم , ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة , فينبئكم بما كنتم تعملون). .

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه , ودعاؤهما معا إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما . . وقد خاف كل من دعاهم رسول الله [ص] إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها , ولم يقبلوا التحدي فيها . مما يدل على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله [ص] وحقية هذا الدين .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقي , حدثنا أبو يزيد , حدثنا فرات , عن عبدالكريم ابن مالك الجزري , عن عكرمة , عن ابن عباس , قال: قال أبو جهل - لعنه الله - إن رأيت محمدا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال: فقال رسول الله [ص]: " لو فعل لأخذته الملائكة عيانا . ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله [ص] لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا " .

وقد لا تكون هذه مباحلة ولكن مجرد تحد لهم , بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فما يخيفهم إذن من الموت , ويجعلهم أجبن خلق الله ? وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون !?

ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون , وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه , وما يرجون الثواب والقربى عليه , إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه . والذي لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق:

(ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين). .

وفي نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده , ويكشف لهم عن قلة الجدوى في فرارهم من الموت , فهو حتم لا مهرب منه , وما بعده من رجعة إلى الله , وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه:

(قل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة , فينبئكم بما كنتم تعملون). .

وهي لفظة من اللفظات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر في الأخلاق حقيقة ينساها الناس , وهي تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه , فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا: " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب , تطلبه الأرض بدين , فجاء يسعى , حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره ,

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)
فقلت له الأرض: يا ثعلب ! ديني . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات " . .

وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء . .

الدرس الخامس: 9 - 11 توجيه إلى فضائل وأحكام صلاة الجمعة

والآن يجيء المقطع الأخير في السورة خاصا بتعليم يتعلق بالجمعة , بمناسبة ذلك الحادث الذي وقع ربما أكثر من مرة , لأن الصيغة تفيد التكرار:

يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون .

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل: ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين) . .

وصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة , التي لا تصح إلا جماعة . . وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكروهم بالله . وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة ; وكلاهما عبادة . وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التي تحدثنا عنها في ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله [ص]: " إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل " .

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله [ص] يقول: " من غسل واغتسل يوم الجمعة , وبكر وابتكر , ومشى ولم يركب , ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ , كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها " . .

وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله [ص] يقول: " من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده , وليس من أحسن ثيابه , ثم خرج يأتي المسجد , فيركع إن بدا له , ولم يؤذ أحدا , ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي , كانت كفارة لما بينهما وبين الجمعة الأخرى " . .

والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع - وسائر نشاط المعاش - بمجرد سماعهم للأذان:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) . .

وترغبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت:

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

مما يوحي بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبیب . وهو في الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ; فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض , ليخلو إلى ربه , ويتجرد لذكره , ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى , ويملاً قلبه وصدرة

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)
من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه !

ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله:

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض , وابتغوا من فضل الله , واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . . وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي . التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض , من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والتهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش , والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه - مع هذا - لا يد من فترة للذكر الخالص , والانقطاع الكامل , والتجرد الممحض . كما توحى هاتان الآيتان .

وكان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف علي باب المسجد فقال: "اللهم إني أجبت دعوتك , وصليت فريضتك , وانتشرت كما أمرتني . فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين" . . [رواه ابن أبي حاتم] . . وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا , في بساطة تامة , فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذي ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذي بلغت إليه , مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية . مما تصوره الآية الأخيرة في السورة:

(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل: ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين) . .

عن جابر - رضي الله عنه - قال: " بينا نحن نصلي مع النبي [ص] إذ أقبلت عير تحمل طعاما , فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي [ص] إلا اثنا عشر رجلا , منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فنزلت: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) . .

وفي الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله (والله خير الرازقين) . .

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة في التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيذا من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر في الطريق . فهذه هي النفس البشرية بخيرها وشرها . وهي قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود , مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة , وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان

سورة المنافقون

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3)

سورة المنافقون

تقديم لسورة المنافقون

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص "المنافقون" الدال على موضوعها . . ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين , ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحاً . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين , والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم , وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين , ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين , ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله , والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد , والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة , واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله [ص] ولم تنقطع في أي وقت تقريبا , وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . . هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها ; وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقاتهم قدرا كبيرا ; وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة , وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب: "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمؤلفه الأستاذ "محمد عزة دروزة" نقتطف منه فقرات كاشفة:

"وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة , فالنبي [ص] والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم , فتملقهم وتترلف إليهم في الظاهر , وتأمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء , كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعماءها خاصة يناوئون النبي جهارا , ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد , ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ; وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فرارا بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولا , ثم إلى يثرب ; وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه , أو بالإغراء والتهويش ; وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين , وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب . . .

"أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفا جدا . فالنبي [ص] استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصارا أقوياء من الأوس والخزرج ; ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه , ولم يبق تقريبا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء , وإما عن غيظ وحقد و عناد , لأنهم رأوا في قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ; وكان للعصية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف , لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي , ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر , إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم , وغدوا يرون في النبي رسول الله , وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة , ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع , فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك , ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد , ويحملهم ذلك على مناوأة النبي [ص] ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علنا في نزعتهم وعدائهم , ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام , والقيام بأركانه , والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه , وإذا كانوا وقفوا أحيانا مواقف علنية فيها كيد ودس , وعليها طابع من النفاق بارز , فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين , والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ; ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق , غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتأمر لم تكن لتخفى على النبي [ص] والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار , كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفصائح المرة بعد المرة , وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون , وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكائدهم , وتحذر النبي [ص] والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

"ولقد كانت مواقف المنافقين ومكائدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية , حتى لكأنه نضال قوي , يذكر بما كان من نضال بين النبي [ص] وزعماء مكة , وإن اختلفت الأدوار والنتائج ; إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد , ودائرة الإسلام تتسع , وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ; وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة , وكان ضعفهم وضالة عددهم وشأنهم يسيران سيرا متناسبا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي [ص] واتساع دائرة الإسلام , وتوطد عزته وسلطانه " .

[ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون , وخاصة في أوائل العهد , أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم , كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة , ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخا كافيا ; وأن النبي [ص] كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب , وأهل مكة خصومه الألداء , وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر , ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ; واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به , ثم جأهروه بالكفر والعداء والمكر ; ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى , والتضامن في موقف المعارضة والكيد , حتى ليتمكن القول: إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعصيد , وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق , ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم , وكفاه شرهم] .

الدرس الأول: 1 - 4 سبب تكذيب المنافقين وتلاعبهم وصددهم عن سبيل الله وتصوير
جنبهم

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر , وإعلانهم
الإسلام والشهادة بأن النبي [ص] هو رسول الله . وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ,
واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم , ويخدعون المسلمين
فيهم:

(إذا جاءك المنافقون قالوا:نشهد إنك لرسول الله - والله يعلم إنك لرسوله - والله يشهد
إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله , إنهم ساء ما كانوا
يعملون). .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله [ص] فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ,
لا يقصدون بها وجه الحق , إنما يقولونها للتقية , وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على
المسلمين . فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة , فقد جاءوا ليخدعوا
المسلمين بها , ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ
الذي يثبت حقيقة الرسالة: (والله يعلم إنك لرسوله). . (والله يشهد إن المنافقين
لكاذبون).

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب
مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع
شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا
يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصي الضمير !

(اتخذوا أيمانهم جنة) . . وهي توشي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم , أو
عرف عنهم كيد أو تدبير , أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا
ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم , فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ,
ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . (فصدوا عن سبيل الله). . صدوا
أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: (إنهم ساء ما كانوا يعملون). .
وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ! ?

وبعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة , وأيمان مكذوبة خادعة , وصد عن سبيل
الله وسوء عمل . . يعلل بأنهم كفروا بعد الأيمان , واختاروا الكفر بعد أن عرفوا
الإسلام:

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم , فهم لا يفقهون). .

فهم عرفوا الأيمان إذن , ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر . وما يعرف الأيمان ثم يعود
إلى الكفر قلب فيه فقه , أو تذوق , أو حياة . وإلا فمن ذا الذي يدوق ويعرف , ويطلع
على التصور الإيماني للوجود , وعلى التذوق الإيماني للحياة , ويتنفس في جو الأيمان
الذكي , ويحيا في نور الأيمان الوضيء , ويتفيا ظلال الأيمان الندية . . ثم يعود إلى الكفر
الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود ? من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود
الحقود , الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد ! (فطبع على قلوبهم فهم لا
يفقهون). .

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ; تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس , وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفرع والحقد والكنود . بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية في معرض الوجود:

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ?) . .

فهم أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب ! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون . . فاما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة . . (تسمع لقولهم كأنهم خشب) . . ولكنها ليست خشبا فحسب . إنما هي (خشب مسندة) . . لا حركة لها , ملطوعة بجانب الجدار !

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفرع الدائم والاهتزاز الدائم:

(يحسبون كل صيحة عليهم) . .

فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء . وهم يخشون في كل

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَعْجِلْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَعْجِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَعْجِرْ لَهُمْ لَنْ يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7)

لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليلهم ; يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف , يحسبونه يطلبهم , وقد عرف حقيقة أمرهم !!

وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان . إذا هم كالقصب المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول [ص] وللمسلمين:

(هم العدو فاحذرهم) . .

هم العدو الحقيقي . العدو الكامن داخل المعسكر , المختبئ في الصف . وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح . (فاحذرهم) . . ولكن الرسول [ص] لم يؤمر هنا بقتلهم , فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم - كما سيحيى نموذج من هذه المعاملة بعد قليل - . .

(قاتلهم الله أنى يؤفكون) . .

فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء ,
وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه . . وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف .

الدرس الثاني: 5 - 8 تأمر المنافقين على المسلمين وقصة ابن أبي في الفتنة

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم , وتبينتهم للرسول [ص
] وكذبهم عند المواجهة . . وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون:

(وإذا قيل لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم , ورأيتهم يصدون وهم
مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم , لن يغفر الله لهم , إن الله
لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى
ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون: لئن رجعنا
إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين
لا يعلمون) . .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبدالله بن أبي بن سلول:

وفصل ابن إسحاق هذا في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المرسيب . .
ماء لهم . . فبينما رسول الله [ص] على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس ,
ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه ,
فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء , فاققتلا ,
فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه . يا معشر المهاجرين . فغضب عبدالله
بن أبي بن سلول , وعنده رهط من قومه , فيهم زيد بن أرقم غلام حدث . فقال: أوقد
فعلوها ? قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال
الأول: سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم
أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم ,
وقاسمتموهم أموالكم , أما والله لو أمسكتهم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .
فسمع ذلك زيد بن أرقم . فمشى به إلى رسول الله [ص] وذلك عند فراغ رسول الله [ص]
من عدوه , فأخبره الخبر , وعنده عمر بن الخطاب . فقال: مر به عباد بن بشر
فليقتله . فقال رسول الله [ص]: " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل
أصحابه ? لا ولكن أذن بالرحيل " . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله [ص] يرتحل
فيها . فارتحل الناس , وقد مشى عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله [ص] حين
بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به .
وكان في قومه شريفا عظيما . فقال من حضر رسول الله [ص] من الأنصار من
أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال
الرجل . حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه .

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله [ص] وسار لقيه أسيد بن حضير , فحياه بتحية
النبوة وسلم عليه , ثم قال: يا نبي الله , والله لقد رحمت في ساعة منكرا ما كنت تروح
في مثلها . فقال له رسول الله [ص]: " أو ما بلغك ما قال صاحبكم ? " قال: وأي
صاحب يا رسول الله ? قال " عبدالله بن أبي " قال: وما قال ? قال: " زعم أنه إن رجع
إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ? " قال: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن
شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال: يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا
الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه , فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا !

ثم مشى رسول الله [ص] بالناس يومهم ذلك حتى أمسى , وليلتهم حتى أصبح ,
وصدر يومهم ذلك حتى أذتهم الشمس . ثم نزل بالناس , فلم يلبثوا أن وجدوا مس
الأرض فوقعوا نياما , وإنما فعل ذلك رسول الله [ص] ليشغل الناس عن الحديث الذي
كان بالأمس من حديث عبدالله ابن أبي .

قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين , في ابن أبي ومن كان
على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله [ص] بأذن زيد بن أرقم , ثم قال: " هذا
الذي أوفى لله بأذنه " . . . وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبي الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق . فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبدالله أتى رسول الله [ص]
فقال: يا رسول الله , إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت لا
بد فاعلا فمروني به فأنا أحمل إليك رأسه , فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل
أبر بوالده مني , وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله , فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل
عبدالله بن أبي يمشي في الناس , فأقتله , فأقتل مؤمنا بكافر , فأدخل النار . فقال
رسول الله [ص]: " بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال
رسول الله [ص] لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: " كيف ترى يا عمر ? أما
والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته " . . .
قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله [ص] أعظم بركة من أمري . .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبدالله بن
عبدالله بن أبي على باب المدينة , واستل سيفه , فجعل الناس يمرون عليه , فلما جاء
أبوه عبدالله بن أبي قال له ابنه: وراءك ! فقال: مالك ? ويلك ! فقال: والله لا تجوز من ها
هنا حتى يأذن لك رسول الله [ص] فإنه العزيز وأنت الذليل ! فلما جاء رسول الله
[ص] وكان إنما يسير ساقية , فشكا إليه عبدالله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبدالله: والله يا
رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله [ص] فقال: أما إذ أذن لك
رسول الله [ص] فجز الآن . .

وننظر مرة إلى الأحداث , ومرة إلى الرجال , ومرة إلى النص القرآني , فنجدنا مع
السيرة , ومع المنهج التربوي الإلهي , ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور . .

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ; ويعيشون فيه - في حياة الرسول [ص]
قراءة عشر سنوات . والرسول [ص] لا يخرجهم من الصف , ولا يعرفهم الله له
بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم في لحن القول , بالالتواء والمداورة
 . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كي لا يكمل الله
قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده , وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه , فأما
الناس فلهم ظاهر الأمر ; كي لا يأخذوا الناس بالظنة , وكي لا يقضوا في أمورهم
بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه [ص] بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر
حياته , فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرهم الإسلام ويؤدون فرائضه . إنما
عرفهم وعرف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ولم
يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر - رضي الله عنه - كان يأتي حذيفة ليطمئن منه
على نفسه أن الرسول [ص] لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له: يا عمر
لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله [ص] قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات
أبدا . فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول لا يصلي على ميت . فلما قبض [ص]

كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم . وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئاً !

وهكذا كانت تجري الأحداث - كما يرسمها القدر - لحكمتها ولغايتها , للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمّة . .

هذا عبدالله بن أبي بن سلول . يعيش بين المسلمين . قريباً من رسول الله [ص] تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان , لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير , تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكاً على الأوس والخزرج , بسبب مقدم رسول الله [ص] بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذي تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش في فيض الإسلام ومدّه في يثرب !

وهذا ابنه عبدالله - رضي الله عنه وأرضاه - نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله [ص] يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة , يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة . إنه يحب الإسلام , ويحب طاعة رسول الله [ص] ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه . ولكنه

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَكِنَّ الْمُتَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10)
وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)

لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظره . وهو يخشى أن تخونه نفسه , وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية , وهتاف الثأر . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه , ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كي لا يتولى ذلك غيره , فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمناً بكافر . فيدخل النار . .

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر في هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان في قلب إنسان , وهو يعرض على رسول الله [ص] أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية - أن يقتل أباه - وهو صادق النية فيما يعرض . يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق . . وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر , فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول: "فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني" . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ; لا بأن يرد أمره أو يغيره - فالأمر مطاع والإشارة نافذة - ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة , فيمسخ عنها الحرج في سماحة وكرامة: [بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا] . . ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رايه: " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ? " .

ثم تصرف الرسول [ص] في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم . . وأمره بالسير في غير أوان , ومتابعة السير حتى الإعياء , ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا لأنصار ! يا للمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبدالله بن أبي بن سلول , وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان . . وحديث الرسول [ص] مع أسيد بن حضير , وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة , واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام !

وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبدالله بن عبدالله بن أبي . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل . تصديقا لمقاله هو: (ليخرجن الأعز منها الأذل). ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . وبظل يقفه حتى يأتي رسول الله [ص] فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . في نفس الواقعة . وفي ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة , وهم بعد بشر , بهم ضعف البشر , وفيهم عواطف البشر , وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة , حين يدركها الناس على حقيقتها , وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث:

(وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم , ورأيهم يصدون وهم مستكبرون) . .

فهم يفعلون الفعلة , ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله [ص] جنبوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالإيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله , وهم في أمن من مواجهته , لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا ! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام . ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ; فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والإيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله [ص] بما قضاه الله في شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله:

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) . .

وبحكي طرفا من فسقهم , الذي استوجب قضاء الله فيهم:

(هم الذين يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . .

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع , ولؤم النحيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصلون بها على اختلاف الزمان والمكان , في حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يسحبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصره رسول الله [ص] ويسلموه للمشركين !

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله [ص] عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين , ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله , ويتركوا الصلاة !

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام , بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق . .

وهكذا يتوافق على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان , من قديم الزمان , إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية :

(ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون) . .

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين , فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللثيمة والوسيلة الخسيسة , التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم . وبطمئنتهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع . والذي يعطي أعداءه لا ينسى أوليائه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عبادته بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيراً ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عبادته - ولو كانوا أعداءه - إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخصاء والأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة:

(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) . .

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبدالله بن عبدالله بن أبي ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

وبضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه , ويضفي عليهم من عزته , وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله

والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول:ها نحن أولاء ! هذا لواء الأعداء . وهذا هو الصف العزيز !

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تهين , ولا تتحني ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن في أرح اللحظات إلا أن يتضعض فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة . .

(ولكن المنافقين لا يعلمون) . .

وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ?

الدرس الثالث: 9 - 11 تحذير المؤمنين من التثاقل والتلهي عن ذكر الله والدعوة للإنفاق

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله [ص] وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة , ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم , ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين , ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد , فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء:

يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت , فيقول:رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها , والله خبير بما تعملون . .

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب , ويدرك غاية وجوده , ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه , فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر , ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال (فأولئك هم الخاسرون) . . وأول ما يخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانا . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة . .

وأنفقوا مما رزقناكم . . فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم . فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

(من قبل أن يأتي أحدكم الموت . . .) . .

فيترك كل شيء وراءه لغيره ; وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه , وهذا أحرق الحمق وأخسر الخسران .

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين ! وأنى له هذا ? (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها)?

وأنى له ما يتقدم به ؟ (والله خير بما تعملون)؟

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة . في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين . ولو اذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان , وألا يغفلوا عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . .

وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم . .

سورة التغابن

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(1)

تقديم لسورة التغابن

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: يا أيها الذين آمنوا . . تستهدف بناء أسس العقيدة ، وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء ، وتخطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث ، وتوكيده توكيدا شديدا ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية ، لحنهم على الإنفاق ، وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور . وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكادت أميل إلى اعتبارها مكية تأثرا بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطابا للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامي ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي . . والله أعلم . .

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق - سبحانه - وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية:

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور) . .

وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسائل الإلهية كلها بوحدانية الله ، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن في الوجود . . لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسائل كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفتراة والمحرفة ؛ أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة

الإيمانية من أتباعها , فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص , أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد , كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجدونه في كتب مفتراة أو محرفة باسم الدين !

ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافي أن التصور الإسلامي عن الذات الإلهية , وصفاتها العلوية , وأثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإنسانية . . أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق في الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ; وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري - بمقدار ما يطيق - حقيقة الألوهية وعظمتها , ويشعر بالقدرة الإلهية وبرائها في أثارها المشهودة في الكون , ويحسها في ذوات الأنفس بأثارها المشهودة والمدركة ; ويعيش في مجال هذه القدرة وبين أثارها التي لا تغيب عن الحس والعقل والإلهام . وبرائها محيطة بكل شيء , مهيمنة على كل شيء , مدبرة لكل شيء , حافظة لكل شيء , لا يند عنها شيء . سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرهفة , وتوفز دائم , وخشية وارتقاب , وطمع ورجاء ; وأن يمضي في الحياة معلقا في كل حركة وكل خالجة بالله , شاعرا بقدرته وهيمنته , شاعرا بعلمه ورقابته , شاعرا بقهره وجبروته , شاعرا برحمته وفضله , شاعرا بقربه منه في كل حال .

وأخيرا فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجها إلى خالقه فينتجه معه , مسبحا بحمد ربه فيشاركه تسبيحه , مدبرا بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه . . ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى , وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضيع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر , في هذا الجزء .

الدرس الأول: 1 - 4 تسبيح ما في الوجود لله القادر الخالق المصور

(يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض , له الملك وله الحمد). . .

فكل ما في السماوات والأرض متوجه إلى ربه , مسبح بحمده ; وقلب هذا الوجود مؤمن , وروح كل شيء في هذا الوجود مؤمنة , والله مالك كل شيء . وكل شيء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته موجد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح , متمردا عاصيا , لا يسبح لله , ولا يتجه إلى مولاه , فإنه يكون شادا بارز الشذوذ , كما يكون في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود .

(وهو على كل شيء قدير). . .

فهي القدرة المطلقة , التي لا تتقيد بقيد . وهي حقيقة يطبعها القرآن في القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها , ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ما تشاء , وتحقق ما تريد . بلا حدود ولا قيود .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)
وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له , وتوجه الوجود إليه بالحمد . . هو طرف
من ذلك التصور الإيماني الكبير .

واللمسة الثانية في صميم القلب الإنساني , الذي يقف في خضم الوجود المؤمن
المسيح بحمد الله . مؤمنا تارة وكافرا تارة . وهو وحده الذي يقف هذا الموقف الفريد .
(هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) . .

فعن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ; وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان
الاتجاه إلى الإيمان ; وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ; ونيطت به أمانة
الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهي أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا
المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ; وأمده بعد ذلك بالميزان
الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذي نزل على رسل منه . فأعانه بهذا
كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئا .
(والله بما تعملون بصير) . .

فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل , بصير بحقيقة نيته واتجاهه , فليعمل إذن
وليحذر هذا الرقيب البصير . .

وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامي الواضح المستقيم
لموقف الإنسان في هذا الوجود , واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن في طبيعة الوجود , الذي تقوم به
السماوات والأرض , كما تشير إلى صنعة الله المبدعة في كيان المخلوق الإنساني .
وتقرر رجعة الجميع إليه في نهاية المطاف:

(خلق السماوات والأرض بالحق , وصوركم فأحسن صوركم , وإليه المصير) . .

وصدر هذا النص: (خلق السماوات والأرض بالحق) . . يقر في شعور المؤمن أن الحق
أصيل في كيان هذا الكون , ليس عارضا وليس نافلة ; فبناء الكون قام على هذا
الأساس . والذي يقرر هذه الحقيقة هو الله الذي خلق السماوات والأرض , والذي يعلم
على أي أساس قامتا . واستقرار هذه الحقيقة في الحس يمنحه الطمأنينة والثقة في
الحق الذي يقوم عليه دينه , ويقوم عليه الوجود من حوله ; فهو لا بد ظاهر , ولا بد باق ,
ولا بد مستقر في النهاية بعد زبد الباطل !

والحقيقة الثانية: (وصوركم فأحسن صوركم) . . تشعر الإنسان بكرامته على الله ,
ويفضل الله عليه في تحسين صورته: صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو
أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثماني ; كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه
الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة . ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ,
وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان , أو إلى أي جهاز من أجهزته , تثبت تلك الحقيقة وتجسمها: (وصوركم فأحسن صوركم). . وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة , وواف بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء .

(وإليه المصير). . مصير كل شيء وكل أمر وكل خلق . . مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان . فمن إرادته انبثق , وإليه - سبحانه - يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخِر . المحيط بكل شيء من

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) طرفيه: مبدئه ونهايته . وهو - سبحانه - غير محدود !

واللمسة الرابعة في هذا المقطع هي تصوير العلم الإلهي المحيط بكل شيء , المطلع على سر الإنسان وعلايته , وعلى ما هو أخفى من السر , من ذوات الصدور الملازمة للصدور:

(يعلم ما في السماوات والأرض , ويعلم ما تسرون وما تعلنون , والله عليم بذات الصدور). .

واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيد المعرفة بربه , فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانباً من التصور الإيماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ; فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه , وليس له نية غائبة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثة كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركاً لحقيقة وجوده , ووجود الكون كله , وصلته بخالقه , وأدبه مع ربه , وخشيته وتقواه , في كل حركة وكل اتجاه . .

الدرس الثاني: 5 - 6 تذكير بمصارع الكفار السابقين

والمقطع الثاني في السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسول والبيئات , المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول [ص] ويكفرون بما جاءهم به من البيئات:

(ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ? ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات , فقالوا: أبشر يهدوننا ? فكفروا وتولوا , واستغنى الله , والله غني حميد). .

والخطاب هنا للمشركين - غالباً - وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبا الذي يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أبناء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يمرون عليها في شبه الجزيرة , في رحلاتهم للشمال والجنوب .

وبضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم في الدنيا ما ينتظرهم هنالك في الآخرة: (ولهم عذاب أليم). . ثم يكشف عن السبب الذي استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم: (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا: أبشر يهدوننا?). . وهو الاعتراض ذاته الذي يعترضه المشركون على الرسول [ص] وهو اعتراض فح ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة , وكونها منهجا إلهيا للبشر , فلا بد أن تتمثل واقعا في بشر , يحيا بها , ويكون بشخصه ترجمانا لها ; فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون . ولا ينغزل هو عنهم بجنسه , فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم , وفي حياتهم ومعاشهم . وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها , بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله , وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله , وأدائها كاملة كما تلقاها من الملائكة الأعلى . وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله , حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله ! وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن اتباع رسول من البشر . كان في هذا غضا من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين ! فجائز في عرفهم أن يتبعوا رسولا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة . أما أن يتبعوا واحدا منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة !

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل وما معهم من البينات , ووقفت في صدورهم هذه الكبرياء وذلك

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أَبْشَرُ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لِيُبْعَثَنَّ نَمَّ لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ (7) قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8)

الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر . .

(واستغنى الله . والله غني حميد). . استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم . . وما هو - سبحانه - بمحتاج إلى شيء منهم ولا من غيرهم , ولا بمحتاج أصلا: (والله غني حميد).

فهذا نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ما ذاقوا وما ينتظرهم . فكيف يكذب بعد هذا النبا مكذبون جدد ? أيلقوا مصيرا كهذا المصير ?

الدرس الثالث: 7 - 13 رد على تكذيب الكفار بالبعث وافتراق المؤمنين عن الكافرين فيه وتوجيه المؤمنين لطاعة الله

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثاني يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث - وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول [ص] يواجههم بالدعوة - وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ; ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم في الحياة:

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبئن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ما أصاب من مصيبة إلا ياذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . .

ومنذ البدء يسمي مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضي بكذبه من أول لفظ في حكايته . ثم يوجه الرسول [ص] إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد: (قل: بلى وربي لتبعثن) . (ثم لتنبئن بما عملتم) . . فليس شيء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! (وذلك على الله يسير) . . فهو يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . كما جاء في مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير .

وفي ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله مع رسوله . وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذي يبشر به القرآن . وهو نور في حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور في آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته وبيصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته .

وبعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعروهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شيء: (والله بما تعملون خبير) . .

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذي أكده لهم أوثق توكيد:

(يوم يجمعكم ليوم الجمع: ذلك يوم التغابن) . .

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله [ص] - عن أبي ذر رضي الله عنه - قال: قال رسول الله [ص]: "إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا . والله

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا نُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد " . .

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودا . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباءة الطائفة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئا للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع !

وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ; وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء , وليغبن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك ! يفسره ما بعده:

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) . .

وقبل أن يكمل نداءه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيماني في القدر , وفي أثر الإيمان بالله في هداية القلب:

(ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه , والله بكل شيء عليم) . .

ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله , ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو باذن الله . وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرا وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة , فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث , ويرى يد الله في كل حركة , وبطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء . يصبر للأولى ويشكر للثانية . وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا , فيشكر في السراء وفي الضراء ; إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات , أو بالخير على كل حال .

وفي الحديث المتفق عليه: " عجا للمؤمن ! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن " . .

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . .

وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة . ويفتحة على الحقيقة اللدنية المكنونة . ويصله بأصل الأشياء والأحداث , فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفُوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) ومن ثم يكون التعقيب عليها:

(والله بكل شيء عليم).. .

فهي هداية إلى شيء من علم الله , يمنحه لمن يهديه , حين يصح إيمانه فيستحق إراحة الحجب , وكشف الأسرار . . بمقدار . .

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول:

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول , فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين).. .

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة , ونهض بالواجب , وأقام الحجة . وبقي ما ينتظرهم هم من المعصية والتولي , مما ذكروا به منذ قليل .

ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التي ينكرونها وبكذبونها , ويقرر شأن المؤمنين بالله في تعاملهم مع الله:

(الله لا إله إلا هو , وعلى الله فليتوكل المؤمنون).. .

وحقيقة التوحيد هي أساس التصور الإيماني كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق في خطاب المؤمنين . فهي وصلة بين ما مضى من السورة وما يجيء .

الدرس الرابع: 14 - 18 تحذير من عداوة الأولاد والأزواج والأموال وتوجيه إلى السمع والطاعة والإنفاق

وفي النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال , ويدعوهم إلى تقوى الله , والسمع والطاعة والإنفاق , كما يحذرهم شح الأنفس , وبعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم في الختام بعلم الله للحاضر والغائب , وقدرته وغلبته , مع خبرته وحكمته:

(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم , وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة , والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم , واسمعوا وأطيعوا , وأنفقوا خيرا لأنفسكم , ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرصا حسنا يضاعفه لكم , ويغفر لكم , والله شكور حلیم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم).. .

وقد ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - في الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة , فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله [ص]

فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم . فلما أتوا رسول الله [ص] رأوا الناس قد فقهوا في الدين , فهموا أن يعاقبوهم , فأنزل الله هذه الآية: (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم). . وهكذا رواه الترمذي بإسناد آخر وقال: حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا: أما أموالكم وأولادكم فتنة . . والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا . . إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَبَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)

فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير , وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعنت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده . فيبخل ويحبس ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدوا له , لأنهم صدوه عن الخير , وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعون من النهوض بواجبه , اتقاء لما يصيبهم من جرائه , أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه , ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . . وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات . . وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة , التحذير من الله , لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا , والحذر من تسلل هذه المشاعر , وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم , فانتبهوا لهذا , وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا في الابتلاء , وتخلصوا وتجردوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية , فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن بريدة: سمعت أبي بريدة يقول: "كان رسول الله [ص] يخطب , فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران , يمشيان ويعثران فنزل رسول الله [ص] من المنبر فحملهما , فوضعهما بين

يديه . ثم قال: " صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران , فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما " . . . ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله [ص] وهذان ابنا بنته . . . وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبيه فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس , وأودعها هذه المشاعر , لتكفكف نفسها عن التماذي والإفراط , وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو , وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكاييد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد , والعداوة المستترة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة (والله عنده أجر عظيم) . .

ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والإستطاعة , وبالسمع والطاعة :

(فاتقوا الله ما استطعتم - واسمعوا وأطيعوا) . .

وفي هذا القيد: (ما استطعتم) يتجلى لطف الله بعباده , وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله [ص]: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " فالطاعة في الأمر ليس لها حدود , ومن ثم يقبل فيها ما يستطيع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . وبهيب بهم إلى الإنفاق:

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمٌ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)
(وأنفقوا خيرا لأنفسكم) . .

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم , وبعدها الخير لهم حين يفعلون .

وبريهم شح النفس بلاء ملازما . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ; والوقاية منه فضل من الله:

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . .

ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحبيهم في الإنفاق , فيسمي إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ? وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به , ويشكر المقرض , ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله !

(إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حلیم) . .

وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . . ثم . . يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه . . ! يا لله !!!

إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا , ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه - سبحانه - ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله في الإنسان من روحه . فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته

وطبيعته , ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع , ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة , حتى يلقي الله بما يحبه له ويرضاه .

ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب , بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب:

(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم).. .

فكل شيء مكشوف لعلمه , خاضع لسلطانه , مدبر بحكمته . كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم , وسلطانه عليهم , وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه .
ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب , لتتقي الله وتخلص له وتستجيب .

سورة الطلاق

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1)

سورة الطلاق

تقديم لسورة الطلاق

هذه سورة الطلاق , يبين الله فيها أحكامه , ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى "سورة البقرة" التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ; ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن).. .

وحق المطلقة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مبينة: (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة).. .

وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء , ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة , لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج , ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف).. . وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق: (وأشهدوا ذوي عدل منكم).. .

وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للأيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض: (واللأئي يتسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللأئي لم يحضن).. .

وبين عدة الحامل: (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن).. .

ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم , ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن).. .

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه , وأجر الأم على الرضاعة في حالة الإتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما , وفي حالة إرضاعه من أخرى: (فإن أرضعن لكم فاتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى).. .

ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلا , فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته: (لينفق ذو سعة من سعته , ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها).. .

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات , وما يتخلف عنها , بأحكام مفصلة دقيقة , ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه , وبينت حكمه , في رفق وفي دقة وفي وضوح . .

ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذه الحشد العجيب من الترغيب والترهيب , والتعقيب على كل حكم , ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين , وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره , وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي , وإيثار الجميل . والإطعام في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق , وفي اليسر والعسر . .

يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي [ص] بشخصه , وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين , زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة , والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته , وتقوى الله في تنفيذه , ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب , إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء , وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكثر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ; وتوعد الملتوين والملتكنين والمضاربن بأعنف وأشد ما يلقاه عاص ; وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقرأ القارئ في هذه السورة . . (واتقوا الله ربكم). . (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه). . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً). . (وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله). . (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر). . (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً). . (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً). (ذلك أمر الله أنزله إليكم) (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً). . (سيجعل الله بعد عسر يسراً). .

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل: (وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً , وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذاباً شديداً). .

يعقبه التحذير من مثل هذا المصير , والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور , والتلويح بالأجر الكبير: (فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا , قد أنزل الله إليكم ذكراً: رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً). .

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن , ينزل الأمر بينهن , لتعلموا أن الله على كل شيء قدير , وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً). .

يقرأ هذا كله تعقياً على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة في القرآن , من هذا الطراز , كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي . وهي حالة تهدم لا حالة بناء , وحالة انتهاء لا حالة إنشاء . . لأسرة . . لا لدولة . . وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ?

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي:

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن , في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ; وفي كنفه تنبت الطفولة , وتدرج الحداثة ; ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويراً رفاقاً شفيفاً , يشيع منه التعاطف , وترف فيه الضلال , ويشيع فيه الندى , ويفوح منه العبير: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة). . (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن). . فهي صلة النفس بالنفس , وهي صلة السكن والقرار , وهي صلة المودة والرحمة , وهي صلة الستر والتجمل . وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنوا ورفقا , ويستروح من خلالها نداوة وظلا . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها , بما فيها امتداد الحياة بالنسل , فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة , ويعترف بطهارتها وجديتها , وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول: (نساءكم حرث لكم). فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

وبحيط الإسلام هذه الخلية , أو هذا المحضن , أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية , فإنه لا يكتفي بالإشعاعات الروحية , بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية .

والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها , وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات , وفي الإحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ; وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع , كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها . . يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي , وقيمة هذا الأمر عند الله , وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة , وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء , واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً). . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً). . وبين الشكر لله والشكر للوالدين في سورة لقمان: (أن اشكر لي ولوالديك). .

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة , حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود

البشري هي أسرة آدم وزوجه , وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله - سبحانه - قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق , حيث تربي حياة الأسرة فطرته واستعداداته , وحيث تنمي شخصيته وفضائله , وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته . ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقه الإنسان ابتداء . كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف .

والدلالة الثانية لسياق السورة , وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله , هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ; واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا كما كان ينظر إليها في العقائد الوثنية , وعند أتباع الديانات المحرفة , البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

[إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستفذرهما , إنما ينظمها ويطهرها , ويرفعها عن المستوى الحيواني , ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . وقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية , التي تجعل من التقاء جسدين , التقاء نفسين وقلبين وروحين . وتعبير شامل التقاء إنسانين , تربط بينهما حياة مشتركة , وأمال مشتركة , وآلام مشتركة , ومستقبل مشترك , يلتقي في الذرية المرتقبة , ويتقابل في الجيل الجديد , الذي ينشأ في العش المشترك , الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان] .

وبعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم , إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) . . . ويسمي الزواج إحسانا أي وقاية وصيانة . ويستقر في أخلاق المؤمنين أن البقاء بدون إحسان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول [ص :] " لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب " . . . فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها , مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم , عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها . ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفي بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات , ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات , ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ; ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها .

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة , ويقوم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدَر على القوامة , منعا للفوضى والاضطراب والنزاع . . إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية , اعترافا بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية , ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس !

"والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة , ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة , فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس .

"إنه يهتف بالرجال: (وعاشروهن بالمعروف , فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) . . فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية , ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة: (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) فما يدر بهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيرا , وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الإنعطاف الوجداني واستثارته , وترويض الكره وإطفاء شرته .

"فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور , فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام . بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون , وتوفيق يحاوله الخيرون: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله , وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما . إن الله كان عليما خبيرا) . (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا . فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) . .

[فإذا لم تجد هذه الوساطة , فالأمر إذن جد , وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة , ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة , يزيد بها الضغط فشلا , ومن الحكمة التسليم بالواقع , وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام , فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق] .

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء . . وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس , وتقر القلوب , ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة , ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية .

ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصالا يقع , وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية , فتشرع لها , وتنظم أوضاعها , وتعالج آثارها . وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة , التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة , مع دفعها دائما إلى الأمام . ورفعها دائما إلى السماء .

والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد , هو أنها كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية , وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف , مما اقتضى هذا التشديد , وهذا الحشد من المؤثرات النفسية , ومن التفصيلات الدقيقة , التي لا تدع مجالاً للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقراً في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين , ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها , إنما كان شائعا في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنبات الأرض جميعا . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار , وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات . . وليدة لا توأد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيبا أو بكرا . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها . .

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تآذى بوضع النساء . ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى ! ولا لأن هاتفا واحدا في الأرض هتف بتغيير الأحوال . . إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض . . أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة , وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة , وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

. . هذا دين رفيع . . لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس , ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

والآن نستعرض الأحكام في سياق السورة - بعد هذا الاستطراد الذي لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة - والأحكام في سياق السورة شيء آخر غير ذلك التلخيص . شيء حي . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إحياء . . وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارس الأحكام في القرآن ومدارسها في كتب الفقه والأصول .

الدرس الأول: 1 قضاء المطلقة عدتها في بيتها

(يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن , وأحصوا العدة , واتقوا الله ربكم , لا تخرجوهن من بيوتهن , ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله , ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) . .

هذه هي أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبي [ص] (يا أيها النبي). ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه [ص]: إذا طلقتم النساء . . الخ فيوحي هذا النسق من التعبير بما وراءه , وهو إثارة الإهتمام , وتصوير الجدية . فهو أمر

ذو بال , ينادي الله نبيه بشخصه ليلقي إليه فيه بأمره , كما يبلغه لمن وراءه . وهي إحصاءات نفسية واضحة الدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد .

(إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . .

وقد ورد في تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخاري ولفظه: حدثنا يحيى بن بكير , حدثنا الليث , حدثني عقيل , عن ابن شهاب , أخبرني سالم , أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض , فذكر عمر لرسول الله [ص] فتغيظ رسول الله [ص] ثم قال: " ليراجعها , ثم يمسكها حتى تطهر , ثم تحيض فتطهر , فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها , فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل " . .

ورواه مسلم ولفظه: " فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء " . .

ومن ثم يتعين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق ; وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته في حالة طهر من حيض , ولم يقع بينهما في هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق , وهو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل . والحكمة في ذلك التوقيت هي أولا إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي تتجه فيها النفس للطلاق ; وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملا . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل , واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر .

وهذه أول محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة , ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا في هذه الفترة . فهو يقع حيثما طلق . ولكنه يكون مكروها من الله , مغضوبا عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفي في ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتي الأجل . فيقضي الله ما يريد في هذه المسألة .

(وأحصوا العدة) . .

كي لا يكون في عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة , ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص في مدتها لا يتحقق به الغرض الأول , وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفطا للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذي يوحى بأهمية الأمر , ومراقبة السماء له , ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

(واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن , ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة).

هذا أول تنبيه - بعد وهلة النداء الأول - وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر بعدم إخراجهن من بيوتهن - وهي بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن في الإقامة بها فترة العدة - لا يخرجن منها ولا يخرجن , إلا في حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد: وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هي النشوز على الزوج - ولو أنه مطلق - وعمل ما يؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة , واستثارة عواطف المودة , وذكرى بالحياة المشتركة , حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ; فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الإيتين ! فأما حين ترتكس في حماة الزنا وهي في

بيته ! أو تؤذي أهله , أو تنشر عليه , فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة , واستحاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحيها !

(تلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه). .

وهذا هو التحذير الثاني . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأى مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله !? إنه الهلاك والبوار . . (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه). . ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهي وهو من نفس واحدة , فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . ثم . .

(لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا).

وهي لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة , وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن . . إنه يلوح هناك أمل , ويصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتبدل إلى هناءة ورضى . فقد الله دائم الحركة , دائم التغيير , ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى , والرعاية له أوفق , وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

الدرس الثاني: 2 - 3 ماذا بعد انتهاء العدة وفتح باب الأمل

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة , وما فيها من أوضاع وملابسات , وقد تغلق عليها منافذ المستقبل , فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة , وتشعر أنها سرمد , وأنها باقية , وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها . . وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان .

وليست هذه هي الحقيقة . فقد الله دائما يعمل , ودائما يغير , ودائما يبذل , ودائما ينشئ ما لا يجول في حسابان البشر من الأحوال والأوضاع . فرج بعد ضيق . وعسر بعد يسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو في شأن , يبيده للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر , ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجددا ودائما . ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل , ندية بالرجاء , لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ما ليس في الحسابان . . (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا). .

(فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف , وأشهدوا ذوي عدل منكم , وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا). .

وهذه هي المرحلة الثانية وهذا هو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة . وللزوج ما دامت المطلقة لم تخرج من العدة - على أجالها المختلفة التي سبق بيانها - أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها - وهذا هو إمساكها - أو أن يدع العدة تمضي فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة . وسواء راجع أم فارق فهو مأمور

بالمعروف فيهما . منهي عن المضارة بالرجعة , كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها

فَإِذَا بَلَغَ الْأَخْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)

الثانية ثم الثالثة ليطلق مدة بقائها بلا زواج ! أو أن يراجعها ليبقيها كالمعلقة , ويكايدها لتفتدي منه نفسها - وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة , وهو ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهي الضمان الأول لأحكامه في المعاشرة والفراق . كذلك هو منهي عن المضارة في الفراق بالسب والشتم والغلظة في القول والغضب , فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهي بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ; فقد تعود إلى العشرة , فلا تنطوي على ذكرى رديئة , لكلمة نابية , أو غمزة شائكة , أو شائبة تعكر صفائها عندما تعود . ثم هو الأدب الإسلامي المحض الذي يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب .

وفي حالي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعاً للريبة . فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة , فتثور شكوك وتقال أقاويل . والإسلام يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لا بد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين .

وعقب بيان الحكم تجيء اللمسات والتوجيهات تترى:

(وأقيموا الشهادة لله) . .

فالقضية قضية الله , والشهادة فيها لله , هو يأمر بها , وهو يراقب استقامتها , وهو يجزي عليها . والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !

(ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر).

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم: إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم , وهذا هو مقياس دعواهم في الإيمان !

(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) . .

مخرجا من الضيق في الدنيا والآخرة , ورزقا من حيث لا يقدر ولا ينتظر . وهو تقرير عام , وحقيقة دائمة . ولكن إصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحقيقها عندما يتق المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحسن ولا أدق من ضابط الشعور والضمير , فالتلاعب فيه مجاله واسع , لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه , إن الله بالغ أمره) . .

فمجال الكيد في هذه العلاقة واسع , ومسالكة كثيرة , وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إحياء بترك هذه المحاولة , والتوكل على الله , وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع , وما شاء كان ; فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر , وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ ما يشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب , بالنسبة لإرادة الله وقدره . . ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إبحاؤه في هذا المجال وأثره .

(قد جعل الله لكل شيء قدرا) . .

فكل شيء مقدر بمقداره , وبزمانه , وبمكانه , وبملاساته , وبتناجه وأسبابه . وليس شيء مصادفة , وليس شيء جزافا . في هذا الكون كله , وفي نفس الإنسان وحياته . . وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)

كبير من التصور الإيماني . [وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) في سورة الفرقان . وعند قوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) . . في سورة القمر] . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفتوته , والعدة ووقتها , والشهادة وإقامتها . ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة , والناموس الكلي العام . ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله .

الدرس الثالث: 4 - 5 عدة أنواع من المطلقات وتوجيه إلهن بتقوى الله

(واللائي يئسن من المحيض من نسائكم - إن ارتبتم - فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم , ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا).

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتي انقطع حيضهن , واللائي لم يحضن بعد لصغر أو لعدة . ذلك أن المدة التي بينت من قبل في سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض - وهي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهي في المسألة - فأما التي انقطع حيضها والتي لم تحض أصلا فكان حكمها موضع لبس: كيف تحسب عدتها ? فجاءت هذه الآية تبيين وتنقي اللبس والشك , وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء , لاشتراكهن في عدم الحيض الذي تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هي الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة , فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع , فلا حكمة في انتظارها بعد ذلك , وهي غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شيء قدرا . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .

هذا هو الحكم ثم تجيء اللمسات والتعقيبات:

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا).. .

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره . وينالها بيسر في حركته وعمله . ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا في يسر رخي ندي , حتى يلقي الله . . ألا إنه لإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة !

(ذلك أمر الله أنزله إليكم).. .

وهذه لمسة أخرى في جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر . . فقد أنزله الله . أنزله للمؤمنين به , فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان , ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التي يدق عليها دقا متوصلا في هذا المجال:

(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا).. .

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير . . فهو الفيض المغري والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله , ويغمر القلب بالشعور بالله

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٍ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَنَاتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ يَّبْتَعِيهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7) وفضله العميم . فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ?

الدرس الرابع: 6 - 7 ما يترتب على الطلاق من نفقة وسكن ورضاع

(أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم , ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فارتوهن أجورهن , وأتمروا بينكم بمعروف , وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته , ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله , لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاه , سيجعل الله بعد عسر يسرا).. .

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت , والإنفاق في فترة العدة - على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لا أقل مما هم عليه في سكناهم , وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضارتهن سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة - مع وجوب النفقة لكل معتدة - لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته , أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع , وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلا مقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما , فمن حقا أن تنال أجرا على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير , وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة . وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأترا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد , ويتشاورا في أمره ورأئدهما مصلحة , وهو أمانة بينهما , فلا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير البريء فيهما !

وهذه هي المياسرة التي يدعوها الله إليها . فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها , فالطفل مكفول الحقوق: (فسترضع له أخرى). . دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل في الرضاعة , بسبب تعاسرهما بعد فشلهما !

ثم يفصل الأمر في قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجوز هو , ولا تتعنت هي . فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء في السكن أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة . ومن ضيق عليه في الرزق , فليس عليه من حرج , فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا في حدود ما آتاه . فهو المعطي , ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر , وليست هناك خزنة غير هذه الخزنة: (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها). .

ثم لمسة الإرضاء , وإفساح الرجاء , للاثنتين على السواء:

(سيجعل الله بعد عسر يسرا). .

فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق , واليسر بعد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله , وأن يتجها إليه بالأمر كله , وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانع المانع . القابض الباسط . ويده الضيق والفرج , والعسر واليسر , والشدة والرخاء .

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته , وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ; ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غبارا يملأ النفوس ويغشى القلوب , ولم يترك بعده عقابيل غير

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّيْنَاَهَا عَذَابًا تُكْرَأُ (8)

مستريحة بعلاج , ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوسوس والهواجس التي تثور في القلوب , فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقته أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار , أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى , والضيق بعد الفرج , والرزق من حيث لا يحتسب , وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار في الشعور والضمير . . فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل , ونسم

عليه من رحمة الله والرجاء فيه ; ومن يبايع المودة والمعروف التي فجرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل , وهذه اللمسات المؤثرة العميقة , وهذا التوكيد الوثيق المتكرر . . هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايدة صاحبه حتى تنفقي مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون !! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة: ولا تضاروهن يشمل النهي عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية , وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر , المحيط بكل شيء علما . وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة . وبخاصة في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى , لأنها عامل مهم في تيسير الموقف , وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق . .

وإن الزوجين ليفارقان - في ظل تلك الأحكام والتوجيهات - وفي قلوبهما بذور للود لم تمت , ونداوة قد تحيي هذه البذور فتنبت . . ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصنع به حياة الجماعة المسلمة , ويشيع فيها أرجه وشذاه .

الدرس الخامس: 8 - 11 عاقبة المتمردين على أحكام الله وثواب المطيعين لله

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله , فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس , تذكرهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع:

وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله , فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها , وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا , قد أنزل الله إليكم ذكرا: رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . قد أحسن الله له رزقا . .

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد . كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور , ووعده بالأجر في الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا). وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ,

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10)

ثم تصوير العاقبة وسوء المصير: (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا). . ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة في الآية التالية: (أعد الله لهم عذابا شديدا). . كل هذا

لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهي طريقة من طرق الأسلوب القرآني في تعميق الأثر في الحس وإطالة مكثه في الأعصاب .

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمر ربها ورسله . . ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه , فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهي المسؤولة عن هذا الأمر . وهي المسؤولة فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه - أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام , أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة - هي عتو عن أمر الله , لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه , إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة , والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع , ولينفذ كله , وليهيمن على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه - ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية - فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبدا .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . . ذاقته في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عتت عن منهج الله في الأرض . ونحن نشهد وأسلافنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فسادا وانحلالا , وفقرا وقحطا , وظلما وجورا , وحياة مفزعة لا أمن فيها ولا سلام , ولا طمأنينة فيها ولا استقرار . وفي كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذي ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه في الحياة حيث يقول الله: (أعد الله لهم عذابا شديدا). . والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعي - كما أسلفنا الحديث في سورة الصف - جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه , مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذي حق على القرى التي عتت عن أمر ربها ورسله .

وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر: (قد أنزل الله إليكم ذكرا). . ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول [ص] فيجعل شخصه الكريم هو الذكر , أو بدلا منه في العبارة: (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبینات). .

وهنا لفظة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل متنوعة . .

إن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكان الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته , لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته .

والوجه الثاني لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول [ص] قد استحالت ذكرا , فهي صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله [ص] وهكذا وصفته عائشة - رضي الله عنها - وهي تقول: " كان خلقه القرآن " . . وهكذا كان القرآن في خاطره في مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12) وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح , وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق , فلا يقاس إليه رزق الأرض: (قد أحسن الله له رزقا) . وهو الرازق في الدنيا والآخرة , ولكن رزقا خيرا من رزق , واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم .

وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى , وبهون بهذه الإشارة من رزق الأرض , إلى جانب رزق الجنة . بعدما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضا . .

الدرس السادس: 12 الله الخالق للسموات والأرض العالم بما فيها

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع الكوني الهائل , فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدره الله , وعلم الله , في المجال الكوني العريض:

(الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن , يتنزل الأمر بينهن , لتعلموا أن الله على كل شيء قدير , وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) . .

والسماوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضي السبع . فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها . . وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا , لأن علمنا لا يحيط بالكون , حتى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا . . وهيهات ! . .

فننتفع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة في مجالها النفسي , وفي إنشاء التصور الإيماني الكوني الصحيح .

والإشارة إلى هذا الكون الهائل: (سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) . . يهول الحس ويقف القلب وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق , وسعة ملكه , تصغر أمامه هذه الأرض كلها , فضلا على بعض ما فيها , فضلا على حادث من أحداثها . فضلا على دربهات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السماوات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصدده في هذا السياق . فهو أمر هائل إذن , حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطبقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السماوات والأرضين , ويتسامع به الملاء الأعلى وخلق الله الآخرون في السماوات والأرضين . فهي مخالفة بلقاء شنعاء , لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن , جاءه رسول يتلو عليه آيات الله مبينات , ويبين له هذا الأمر , ليخرجه من الظلمات إلى النور . .

وهذا الأمر يتنزل بين السماوات والأرض , لينشئ في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير ; فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علما ; فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض , ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين:

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علما هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ; وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علما .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر , فالشعور بعلم الله وإطلاعه على كل شيء هو الضمان لحساسية هذه الضمائر , في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع , بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسبحان خالق القلوب , العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

سورة التحريم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ
فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2)

سورة التحريم

التعريف بسورة التحريم

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ; وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ; وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ; وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان . .

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة , شاملا كاملا متكاملا , يلي كل طاقات البشر واستعداداتهم , في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض , وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده , ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام:نموا وتكاثرا , ورفعة وتطهرا , في أن واحد . فلم يعطل طاقة بانية , ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم , الذي يهئ الأرواح في الدنيا لمستوى نعيم الآخرة , وبعد المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها [ص] إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها , وتتجسم فيه بكل حقيقتها , ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي , قوي البنية , سليم البناء ; صحيح الحواس , يقظ الحس , يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة , حي الطبع , سليم الحساسية , يتذوق الجمال , متفتح للتلقي والاستجابة . وهو في الوقت ذاته كبير العقل , واسع الفكر , فسيح الأفق , قوي الإرادة , يملك نفسه ولا تملكه . . ثم هو بعد ذلك كله . . النبي . . الذي تشرق روحه بالنور الكلي , والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج , والذي ينادى من السماء , والذي يرى نور ربه , والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر , فيسلم عليه الحصى والحجر , ويحن له الجذع , ويرتجف به أحد - الجبل . . ! . . ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها . .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها , تقرأ فيه صور هذه العقيدة , وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا , ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن , ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول [ص] للناس !

إنه ليس له في نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ جانب من حياته [ص] أو يخبأ ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ; وقد جاء [ص] ليعرضها للناس في شخصه , وفي حياته , كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء .

ولقد حفظ عنه أصحابه [ص] ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيرا - أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية , لم تسجل ولم تنقل . . وكان هذا طرفا من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول , أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة .

وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيئية لرسول الله [ص] وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نساءه وبعض , وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته [ص] وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك . . ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محددًا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله [ص] من زينب بنت جحش قطعًا .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصا عن قصة أزواج النبي , وعن حياته البيئية يعين على تصور الحوادث والنصوص التي جاءت بصدها في هذه السورة . ونعتمد في هذا الملخص على ما أثبتته الإمام ابن حزم في كتابه: "جوامع السيرة" . . وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة:

أول أزواجه [ص] خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله [ص] وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون , وسنها - رضي الله عنها - أربعون أو فوق الأربعين , وماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات , ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين .

فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة . فلما توفي عنها , تزوجها رسول الله - [ص] .

ثم تزوج عائشة - رضي الله عنها - بنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكرا غيرها . وكانت أحب نسائه إليه , وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفي عنها رسول الله [ص] .

ثم تزوج حفصة بنت عمر - رضي الله عنه وعنهما - بعد الهجرة بستين وأشهر . تزوجها ثيبا . بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبي خيرا منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبدة بن الحارث بن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه في حياته [ص] . وقيل كان زوجها قبل النبي هو عبد الله بن جحش الأسدي المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجا لأبي سلمة , الذي جرح في أحد , وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله [ص] أرملة . وضم إليه عيالها من أبي سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها . وقد عرضنا قصتها في سورة الأحزاب في الجزء الثاني والعشرين , وكانت جميلة وضيئة . وهي التي كانت عائشة - رضي الله عنها - تحس أنها تسامىها , لنسبها من رسول الله [ص] وهي بنت عمته , ولوضاءتها !

ثم تزوج جويرة بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق في أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير , عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها . قالت: " لما قسم رسول الله [ص] سبايا بني المصطلق وقعت جويرة بنت الحارث في أسهم الثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها , وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه , فأنت رسول الله [ص] تستعينه في كتابتها . قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ! وعرفت أنه سيرى منها [ص] ما رأيت , فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله . أنا جويرة بنت الحارث بن أبي صرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقع في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي , فجئت أستعينك على كتابتي . قال: " فهل لك في خير من ذلك ? " قالت: وما هو يا رسول الله ? قال: " أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ? " قالت: نعم يا رسول الله . قال: " قد فعلت " . .

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة في بلاد الحبشة , فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي [ص] وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضا . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه [ص] منها: أنه أتى بها وبأخرى معها من السبي , فمر بهما بلال - رضي الله عنه - على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال [ص]: " اعزبوا عني هذه الشيطانة " وأمر بصفية فحيزت خلفه , وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله [ص] قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله [ص] لبلال - فيما بلغني - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: " أنزعت منك الرحمة يا بلال ? حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ? " .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن . وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس . وكانت قبل رسول الله [ص] عند أبي رهم بن عبد العزى . وقيل حويطب بن عبد العزى . وهي آخر من تزوج [ص] .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه [ص] قصة وسببا في زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش , وجويرة بنت الحارث , لم يكن شواوب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة - رضي الله عنها - هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان

اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر - إلى جانب جاذبيتهن - ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جوهرية مثلا , ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبداً إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي [ص] وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا . ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه فيحياته وفي أزواجه [ص] على اختلاف الدوافع والأسباب .

ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله , وكما أمره أن يقول:
(قل: سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟) . .

استمتع بأزواجه وأمتعهن , كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عنه: " كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحكا بساما " . . ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه , ومن فيض قلبه , ومن حسن أدبه , ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت في غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبجح المسلمون بالغنائم والفيء . وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة , وما أعقب هذا الطلب من أزمة , انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة , أو المتاع والتسريح من عصمته [ص] فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

ولكن الحياة في جو النبوة في بيت رسول الله [ص] لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية , والهواتف البشرية في نفوس أزواجه - رضي الله عنهن - فقد كان يبدر أو يشجر بينهن , ما لا بد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال . وقد سلف في رواية ابن إسحاق عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كرهت جوهرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله [ص] لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلا ! وكذلك روت هي نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . " قلت للنبي [ص]: حسبك من صفية كذا وكذا" . قال الراوي: تعني قصيرة ! فقال [ص]: " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " . . كذلك روت عن نفسها أن النبي [ص] حين نزلت آية التخيير التي في الأحزاب , فاخترت هي الله ورسوله والدار الآخرة , طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها ! - وظاهر لماذا طلبت هذا ! - فقال [ص]: " إن الله تعالى لم يبعثني معنفا , ولكن بعثني معلما ميسرا . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها . . " .

وهذه الوقائع التي روتها عائشة - رضي الله عنها - عن نفسها - بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة - ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنساني الذي لا بد منه في مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول [ص] يؤدي رسالته بالتربية والتعلية في بيته كما يؤديها في أمته سواء .

وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة الرسول [ص] وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتأمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية , ووقاية أنفسهم وأهلهم من النار . كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر , وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين . .

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم .

وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت: من أنبأك هذا ؟ قال: نبأني العليم الخبير .

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) . .

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال: حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة ، قالت: كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغاير . إني أجد منك ريح مغاير . قال: " لا . ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحدا " . . فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: (لم تحرم ما أحل الله لك ؟).

ويبدو أن التي حدثها رسول الله [ص] هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتأمرة معها . فأطلع الله رسوله [ص] على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته: (من أنبأك هذا ؟) . . ولعله دار في خلدتها أن الأخرى هي التي نبأتها ! ولكنه أجابها: (نبأني العليم الخبير) . فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول [ص] يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تأمر ومكيدات في بيت الرسول [ص] أن غضب . فألى من نسائه لا يقربهن شهرا ، وهم بتطبيقهن - على ما تسمع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدا غضبه [ص] فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس ، أن رسول الله [ص] كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؛ تبتغي مرضات أزواجك . . .

وفي رواية لابن جرير ولابن أسحاق أن النبي [ص] وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله [ص] بتحريم مارية وحلف بهذا . وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة . . فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .

وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول [ص] نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى

المستوى الذي يسود بيوت النبي , مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئاً كبيراً . . والله أعلم أي ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث - حادث إيلاء النبي [ص] من أزواجه , فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو يرسم كذلك جانباً من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك . . قال: حدثنا عبد الرزاق , أخبرنا معمر , عن الزهري , عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور , عن ابن عباس قال: "لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله [ص] اللتين قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه , فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة , فتيروز , ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ , فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتين من أزواج النبي [ص] اللتان قال الله تعالى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)? فقال عمر: وأعجبا لك يا ابن عباس ! [قال الزهري: كرهه والله ما سأله عنه ولم يكتمه] قال: هي عائشة وحفصة . قال: ثم أخذ يسوق الحديث , قال: كنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم . قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال: فغضبت يوماً على امرأتي , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني . فقالت: ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج رسول الله [ص] ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله [ص] ? قالت: نعم ! قلت: وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ? قالت: نعم ! قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفأتمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ? لا تراجعني رسول الله [ص] ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك , ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله [ص] منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله [ص] ينزل يوماً وأنزل يوماً , فيأتيني بخبر الوحي وغيره وأتيه بمثل ذلك . قال: وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشياً فضرب بابي ثم نادى , فخرجت إليه , فقال: حدث أمر عظيم . فقلت: وما ذاك ? أ جاءت غسان ? قال: لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله [ص] نساءه ! فقلت: قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائناً . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت: أطلقكن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم ? - فقالت: لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاماً أسوداً فقلت: استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر , فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلاً , ثم غلبنى ما أجد , فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر , ثم غلبنى ما أجد , فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني . فقال: ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله [ص] فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك ? فرفع رأسه إلي وقال: " لا " . فقلت: الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء , فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم , فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم , فغضبت على امرأتي يوماً , فإذا هي تراجعني , فأنكرت أن تراجعني , فقالت: ما تنكر أن أراجعك ? فوالله إن أزواج النبي [ص] ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفأتمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ; فإذا هي قد هلكت ? فتبسم رسول الله [ص] فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى

رسول الله [ص] منك ! فتبسم أخرى . فقلت: أستأنس يا رسول الله ! قال: " نعم " فجلست , فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا هبة مقامه فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسا وقال: " أفي شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت: استغفر لي يا رسول الله . . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل " . . [وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص] . .

الدرس الأول: 1 - 5 معالجة مشكلة في بيت النبي وعتابه على يمينه وعتاب زوجاته على فعلهن

هذه رواية الحادث في السير . فلننظر في السياق القرآني الجميل:

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله [ص]:

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك , تبتغي مرضاة أزواجك , والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم , والله مولاكم , وهو العليم الحكيم . .

وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع . والرسول [ص] لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي ; إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد . . والتعقيب: (والله غفور رحيم) . . يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخظة , وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إحياء لطيف .

فأما اليمين التي يوحى النص بأن الرسول [ص] قد حلفها , فقد فرض الله تحلتها . أي كفارتها التي يحل منها . ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى . (والله مولاكم) . . فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الأيمان , للخروج من العنت والمشقة . . (وهو العليم الحكيم) . . يشرع لكم عن علم وعن حكمة , ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم . فلا تحرموا إلا ما حرم , ولا تحلوا غير ما أحل . وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله , لأن موضوعه ليس هو المهم , وليس هو العنصر الباقي فيه . إنما العنصر الباقي هو دلالة وأثاره:

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا) . .

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجبية في تاريخ البشرية . الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلا . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجته بشأن ذلك الحديث

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَوَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحٌ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ
مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)
الذي أسره إلى بعض أزواجه . وأنه [ص] حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب
منه . ترفعا عن السرد الطويل , وتجملا عن الإطالة في التفصيل ; وأنه أنبأها بمصدر
علمه وهو المصدر الأصيل:

(فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت: من
أنباك هذا ؟ قال: نبأني العليم الخبير). .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة في حالة التأمر والمكائد المحبوكه وراء
الأسرار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها , وترد القلوب
بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

وبتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر
حاضر:

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل
وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير). .

وحين نتجاوز صدر الخطاب , ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله , فقد
بعدت عنه بما كان منها . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة
وتهديدا رعبيا مخيفا . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله [ص]
حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك
ظهير ! ليطيب خاطر الرسول [ص] ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير
!

ولا يد أن الموقف في حس رسول الله [ص] وفي محيطه كان من الضخامة والعمق
والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما
جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر - رضي الله عنهما - وهو يسأله: جاءت
غسان ؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم
في الشام على حافة الجزيرة , وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر في
نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ,
وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة
المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوجي بشتى الدلالات على نظرة
أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر , فهو إذن صحيح قويم عميق

وكذلك دلالة الآية التالية , وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبذل الله النبي بهن
من أزواجه ولو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد:

(عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات , مؤمنات , قانتات , تائبات
, عابدات , سائحات , ثيبات وأبكارا). .

وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب , وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياسة وهي التأمل والتدبر والتفكير في إبداع الله والسياسة بالقلب في ملكوته . وهن - مع هذه الصفات - من الثبات ومن الأبرار . كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا يَوْمَ الْيَوْمِ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَأَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكابدهن في قلب رسول الله [ص] وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبي [ص] بعد نزول هذه الآيات , وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمان هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة , وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه . وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيئية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة , وإقامة دولة , على غير مثال معروف , وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة , وتنشئ في الأرض مجتمعا ربانيا , في صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهي صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته . فلا تفرق هذه عن تلك ; لأن القدر جرى بأن يكون بشرا رسولا , حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانا . فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية , ولا تعطل استعدادا من استعداداته النافعة ; وفي الوقت ذاته تهذبه وتربيته , وترتفع به إلى غاية مراقبه .

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به , حتى استحالوا نسخا حية منه . وكانت سيرة نبهم وحياته الواقعية , بكل ما فيها من تجارب الإنسان , ومحاولات الإنسان , وضعف الإنسان , وقوة الإنسان , مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية , مرتقية بها خطوة خطوة - كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه - كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة , يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية , التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات !

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة . وفي اختيار الرسول الذي يطبق تلقيها وترجمتها في صورة حية . وفي جعل حياة هذا الرسول كتابا مفتوحا يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال . . .

الدرس الثاني: 6 - 9 توجيه المؤمنين إلى تربية أبنائهم والتوبة النصوح

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقا في نفوس المسلمين , يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير , فيقوا أنفسهم وأهلهم من النار . ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفي ظلال الدعوة إلى التوبة التي وردت في سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة , ويصور لهم الجنة التي تنتظر التائبين . ثم يدعو النبي [ص] إلى جهاد الكفار والمنافقين . . وهذا هو المقطع الثاني في السورة:

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا , وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم , ويفعلون ما يؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم , إنما تجزون ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم , ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار , يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه , نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم , يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا إنك على كل شيء قدير . يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم , وماواهم جهنم وبئس المصير) . .

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله , وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعة: (وقودها الناس والحجارة) . الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة وفي رخص الحجارة , وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفضعها نارا هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلبسها فظيع رهيب: (عليها ملائكة غلاظ شداد) . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون . . (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . . فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم , ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف , فلا يؤبه لاعتذارهم , بل يجبهون بالتبئيس:

(يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون) . .

لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار , إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهلهم من هذه النار ? إنه يبين لهم الطريق , وبطمعهم بالرجاء:

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا , عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم , ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ,

نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم , يقولون:ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا إنك على كل شيء قدير). . .

هذا هو الطريق . . . توبة نصوح . . . توبة تنصح القلب وتخلصه , ثم لا تغشه ولا تخدعه .

توبة عن الذنب والمعصية , تبدأ بالندم على ما كان , وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة , فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها ; وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هي التوبة النصوح . التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحها فلا يعود إلى الذنوب .

فإذا كانت هذه التوبة فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما هم في المشهد الذي سبق في السياق . ولا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع , وتكريم عظيم , أن يضم الله المؤمنين إلى النبي [ص] فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نورا (يسعى بين أيديهم وبأيمانهم). نورا يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونورا يهتدون به في الزحام المريج . ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف !

وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله: (يقولون:ربنا أتمم لنا نورنا , واغفر لنا , إنك على كل شيء قدير). . . وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب , هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ?

إن هذا الثواب , كذلك العقاب , كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار , وإنالتهم هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي [ص] ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله , وإصلاح بيته , كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .

إن الإسلام دين أسرة - كما أسلفنا في سورة الطلاق - ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته , وواجبه في بيته . والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة , وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي . . . المجتمع الإسلامي . . .

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها , كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه , فلا يصعب على طارق , ولا يستعصي على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .

ولابد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة . لابد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبتا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال . لابد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء , وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن ينزل للرجال وللنساء ; وكان ينظم البيوت , وبقيمها على المنهج الإسلامي , وكان يحمل المؤمنين تبعه أهليهم كما يحملهم تبعه أنفسهم: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) . .

هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ; وإلى الأهل بعامة . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلا كثير الثغرات !

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه . . كان قد أنشئ مجتمع مسلم - في المدينة - يهيمن عليه الإسلام . يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية , ويهيمن عليه بتشريع المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه , مرجع الرجال والنساء جميعا , إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير . . وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليدته على الحياة كان الأمر سهلا بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلا بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام . .

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !!

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي , وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبى الإسلام , سواء اهتدت إليه بنفسها , أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها . .

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاضرون إلى تصور واحد , وحكم واحد , وطابع واحد . فاما هنا فالرجل يتحاضر إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليدته على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل ! وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب لبيدل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتا أن يبحث أولا عن حارسة للقلعة , تستمد تصورها من مصدر تصوره هو . . من الإسلام . . وسيضحي في هذا بأشياء: سيضحي بالالتماع الكاذب في المرأة . سيضحي بخضراء الدمن ! سيضحي بالمظهر البراق للحيث الطافية على وجه المجتمع . ليجتنب عن ذات الدين , التي تعينه على بناء بيت مسلم , وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في

أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا إليهن وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر .
وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا);

ونرجع الكرة - بهذه المناسبة - إلى طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الإسلام , والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي . فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . الإسلام عقيدتها , والإسلام نظامها , والإسلام شريعته , والإسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها .

هذه الجماعة هي المحض الذي يحمي التصور الإسلامي ويحملة إلى النفوس , ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي , كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء .

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة , محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساحق . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العيش المسلم , أو في القلعة المسلمة , التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامي .

إنها ضرورة - وليست نافلة - أن تقوم جماعة مسلمة , تتواصى بالإسلام , وتحتضن فكرته وأخلاقه وأدابه وتصوراته كلها , فتعيش بها فيما بينها , وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو إليها , في صورة واقعية يراها من يدعوون إليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال في ظله , في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب . .

وفي سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله [ص] بمجاهدة أعدائها: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين , واغلظ عليهم , وماؤهم جهنم وبئس المصير). .

وهي لفتة لها معناها وقيمتها بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار . وبالتوبة النصوح التي تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجري من تحتها الأنهار . .

لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحض الذي تتم فيه الوقاية من النار . فلا تترك هذه العناصر المفسدة

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرًاةً نُوحٍ وَاِمْرًاةً لُّوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمَّ يُغَيِّبَا عَنْهُمَا مِنَ اللّٰهِ سَبِيْنًا وَقِيْلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاٰخِلِيْنَ (10)
الجائرة الظالمة , تهاجم المعسكر الإسلامي من خارجه كما كان الكفار يصنعون . أو تهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلظة عليهم . لأن كلا من الفريقين يؤدي دورا مماثلا في تهديد المعسكر الإسلامي , وتحطيمه أو تفتيته . فجهادهم هو الجهاد الواقعي من النار . وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول الله والمؤمنين في الدنيا .

(ومأواهم جهنم وبئس المصير) في الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ; كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى في السياق . .

الدرس الثالث: 10 - 12 نموذجان امرأتان كافتان وامرأتان مؤمنتان

ثم تجيء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ تتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات في وسط كفار:

(ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط , كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين , فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا , وقيل ادخلا النار مع الداخلين . .
وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون , إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة , ونجني من فرعون وعمله , ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا , وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين) . .

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط , أنها كانت خيانة في الدعوة , وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساحرين من قومه ; وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه !

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره - ولعلها كانت أسوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى . وقد ورد في التاريخ أن أم "أمحنوتب الرابع" الذي وجد الآلهة في مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس , وسمى نفسه "إخاتون" . كانت أسوية على دين غير دين المصريين . . والله أعلم إن كانت هي المقصودة في هذه السورة أم أنها امرأة فرعون موسى . . وهو غير "أمحنوتب" هذا . .

ولا يعيننا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون . فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة . .

إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا , بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبي [ص] وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن , ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين !

وها هي ذي امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط . (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) . . (فخانتاهما) . . (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) . . (وقيل: ادخلا النار مع الداخلين) . .

فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وها هي ذي امرأة فرعون , لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه . . في قصر فرعون . . عن طلب النجاة وحدها . . وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: (ونجني من فرعون

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَتَجْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَتَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي
أُحْصِنَتْ فَرْجَهَا فَتَقَحُّنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ (12)

وعمله). . . وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: (ونجني من القوم الظالمين). . .

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة .
فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد
فيه امرأة ما تشتهي . . ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض
فحسب , بل اعتبرته شرا وذنبا وبلاء تستعيز بالله منه . وتتفلى من عقابيله , وتطلب
النجاة منه !

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية . . وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة - كما
أسلفنا - أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة . . وحدها
. . في وسط ضغط المجتمع , وضغط القصر , وضغط الملك , وضغط الحاشية ,
والمقام الملوكي . في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء . . وحدها . . في خضم
هذا الكفر الطاغى !

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر , وكل هذه
المعوقات , وكل هذه الهواتف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد .
الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تنزل من الملاء الأعلى . .

(ومريم ابنة عمران). . . إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور
أخرى . ويذكر هنا تطهرها: (التي أحصنت فرجها). . . يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة !
(فنفخنا فيه من روحنا). ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام , كما هو مفصل في
السورة المفصلة لهذا المولد "سورة مريم" فلا نستطرد معه هنا تمثيلا مع ظل النص
الحاضر , الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها: (وصدقت
بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين). . .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي
جعلتها قرينة مريم في الذكر . بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها . وهما الاثنان
نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله لأزواج النبي [ص]
بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة , ويضربهما للمؤمنات من بعد في
كل جيل . .

وأخيرا فإن هذه السورة - وهذا الجزء كله - قطعة حية من السيرة , رسمها القرآن
بأسلوبه الموحى . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير
القرآني أكثر إيجاء , وأبعد أمادا , وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة
المجردة , الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان . . كما هو شأن القرآن . .

انتهى الجزء الثامن والعشرون ويليهِ الجزء التاسع والعشرون:

مبدوءاً بسورة تبارك

